المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي

تأليف

دكتور نظير حسان سعداوي

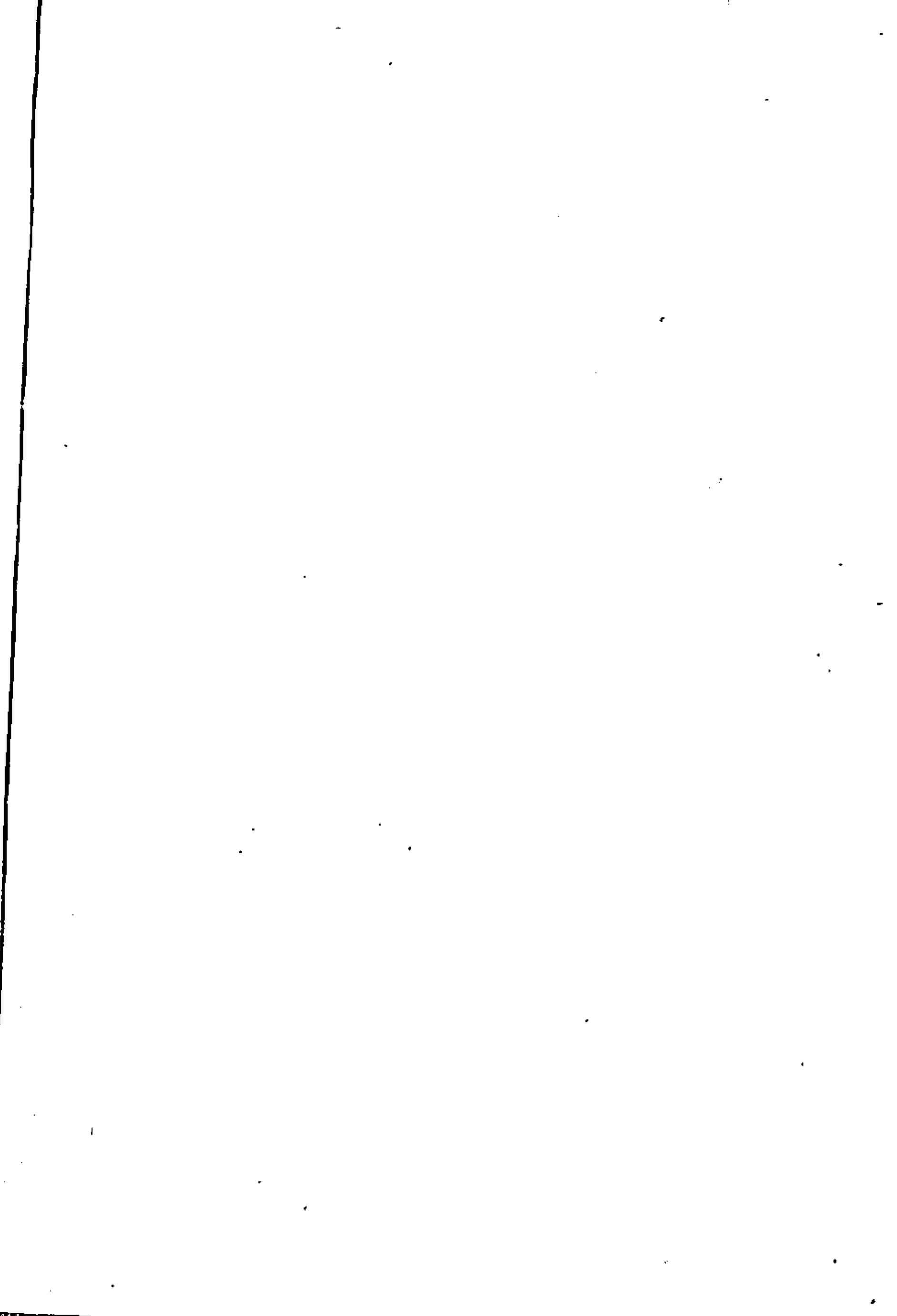
١٩٦٢

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا ـ القاهرة

حسن محمد وأولاده

مطبعة لجنة البيان العربي
٢٧ الجامع الاسماعيلي بالحلمية
ت ٢٧٠٧٩

المحتـــويات



إهـــــداء

إلى روح أستاذى المفضال المرحوم عبد الحميد العبادى . أهدى هذا البحث ، الذى جاء ثمرة توجيهاته السديدة وملاحظاته القيمة الدقيقة ، يوم الثلاثاء ٢٥ مارس سنة ١٩٥٢ حين اشترك فى مناقشة رسالتى للدكتوراه وموضوعها «التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى»(١) .

كان رحمه الله مؤرخاً ناقداً . منزهاً عن الهوى . بعيداً عن مواطن الذلل . عف اللسان . ساعياً إلى التقويم والبناء . أخذ على الرسالة خلوها من فصل خاص بدراسة المصادر بوجه عام ، والمعاصرة منها بوجه خاص .

فعزمت – منذئذ – على تحقيق رغبته بإخراج كتيب عن المؤرخين المعاصرين للسلطان صلاح الدين الأيوبى . يشمل اللاتينيين منهم والمسلمين على السواء والموازنة بين مؤلفاتهم .

وما أن فرغت من جمع وإعداد الماده التاريخية ، فى صيف ١٩٥٧ حتى تفضلت مكتبة النهضه المصريه بطبعها فى نشرتين : الأولى بعنوان «خمسه من معاصرى صلاح الدين الأيوبى» ، وتنفرد بالحديث عن المؤرخين المسلمين ، وهم : ابن أبى طى . وابن الأثير . وابن شداد .

والعماد الأصفهانى . والقاضى الفاضل . والثانية بعنوان « ثلاثه من مؤرخى الحروب الصليبيه » وتناولت الحديث عن المؤرخين اللاتينيين وهم . وليم الصورى . والفارس أرنول . والشاعر امبروز : ولم يسبق - فيما يعلم الباحث - أن تناولهم أحد باللغة العربيه .

ثم نفدت الطبعه الأولى لهاتين النشرتين ، ورأيت تعميما للفائدة ، واستكمالا لوحدة البحث وتصوره ، أن أجمع مادتهما بين دفتى كتاب واحد ، يطبع بعنوان « المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبى » ذلك البطل، الذى لم يحظ قائد من قادة الحرب والسياسة ، بتقدير خصومه وإعجابهم - باستثناء نابليون بونابرت - مثلما حظى هو ، بتقدير خصومه من الصليبيين على قول مؤرخ أوروبى ، والذى يرقى تاريخه الى مرتبة الصداره بين تواريخ العصر الوسيط الشرقيه والغربيه منها على السواء . لأنه كان نقطة تحول خطير فى السياسه الدوليه المعاصرة ، انتقل فيه مركز الثقل المادى والحضارى من الممالك اللاتينيه ، أو بمعنى أعم من قادة المسيحية الى الممالك الإسلاميه وقادتها .

ويعتمد المؤرخ الحديث فى تصور هذا التحول ، اعتمادا أساسيا على المصادر المعاصره للأحداث التاريخية وقتذاك . ومن هنا تتضح أهمية المؤرخين المعاصرين لذلك العصر ، ودراسة الماده التاريخية المتعلقة بهم ، وغربلتها وفحصها بدقة وعنايه ، وصياغتها صياغة لائقة بهم وبصلاح الدين وعصره .

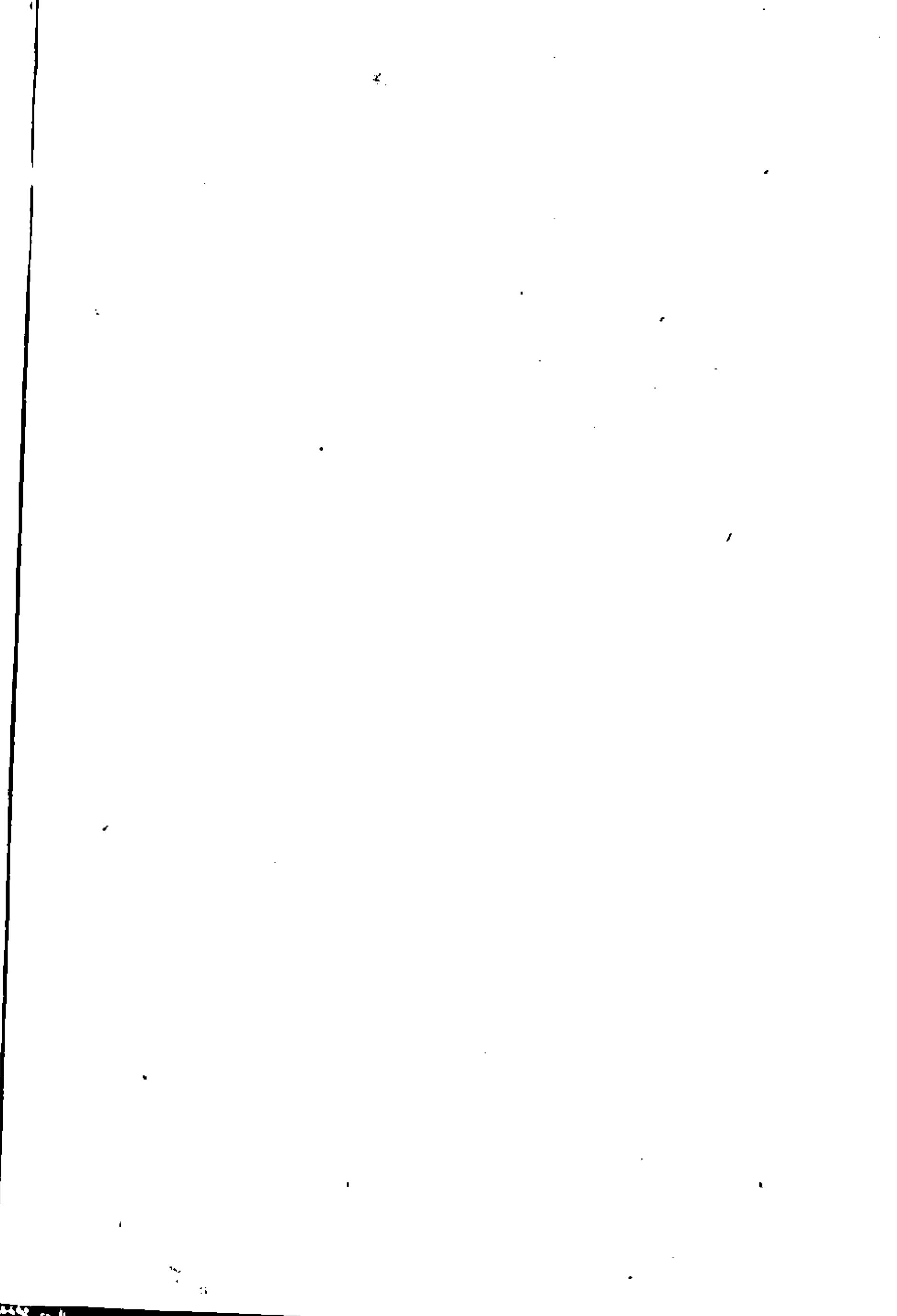
ومهما يكن من شيء ، فالمؤرخ المعاصر - فى غالب الأحيان - أشبه بالمرآة الصافية ، يرى القارىء فى حولياته ، الصوره الحقيقيه الحيـه، الناطقة لأحداث عصره .

وهذا الكتاب يتكون من فصلين . يتناول أولهما الحديث الجامع الشامل عن المؤرخين المسلمين ومؤلفاتهم التاريخية ، وعرض وجهة نظرهم الإسلاميه فى ذلك التحول، المؤذن بقرب تصفية وزوال المشكلة الصليبية فى الشرق، وطى صفحاتها فى بطن التاريخ كطى السجل للكتب. ويعرض الثانى الخبر عن المؤرخين اللاتينيين المعاصرين لتلك الأحداث ووجهة نظرهم فى هذا التحول كذلك ، ورأيهم فى القوتين الإسلامية والمسيحية المتنافستين . وينتهى الفصل بموازنه بين هذين الفريقين من المؤرخين، تكشف عن أوجه الشبه وأوجه الخلاف بينهم .

وبعد ، أرجو أن أكون قد وفقت إلى تحقيق توجيه أستاذى المرحوم العبادى - رحمه الله - والحق أردت ، والاعتراف بفضله قصدت والله ولى التوفيق .

المنيره فى يوم الأربعاء { ٣ محرم ١٣٨٢ / ٦ يونيو ١٩٦٢ }

نظير حسان سعداوى



الفصل الأول

المؤرخون المسلمون

أدرك هذا العصر نفر كبير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة ، وهم قسمان: قسم لم يقصد التأريخ للسلطان صلاح الدين وعصره، بل أشار إليه عفواً فى سياق حديثه ، وتختلف الإشارة من شخص لآخر، على حسب قربه من الأحداث واتصاله بها ، ومدى ما وصل إلى علمه عنها ، فتكون إشارته فى صورة عبارات قصيرة ، مبعثرة هنا وهناك ، أو نصوص كبيرة ، تذكر تحت سنوات متباعدة . وإليك ثبت بهذا القسم من معاصرى صلاح الدين،على سبيل الذكر والفائدة لا الحصر :

١ ــ ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الاندلسى ٦١٤ هـ
رحلة ابن جبير

٢ ــ ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن سبط ٥٩٧ هـ
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان جـ ٨ مخطوط

٣ ــ ابن مماتى : شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعد ٦٠٦هـ
كتاب قوانين الدواوين .

٤ ــ أبو صالح الأرمنى : ٦٠٥هـ
أخبار من نواحى مصر واقطاعها، المعروف بتاريخ أبى صالح .

٥ — أسامة : مؤيد الدين أبو المظفر بن منقذ الشيرازى ٥٨٤ هـ
كتاب الاعتبار .

٦ — البغدادى : موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف ٦٢٩ هـ
كتاب الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة
والحوادث المعاينة فى أرض مصر .

٧ — جمال الدين بن الوزير . أبو الحسن على بن كمال الدين ٦٢٣ هـ
أخبار الدول المنقطعة مخطوط

٨ — عمارة اليمنى : أبو محمد بن أبى الحسن نجم الدين ٥٦٩ هـ
كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

٩ — ياقوت الحموى : أبو عبدالله الملقب بشهاب الدين ٦٢٦ هـ
معجم الأدباء .

* * *

أما القسم الثانى من المؤرخين المسلمين المعاصرين لصلاح الدين فخمسة، وهم المقصودون هنا بالبحث والدراسة، لأن بعضهم أرخ للعالم الإسلامى ومنه عصر صلاح الدين بطبيعة الحال، والبعض قصر تأريخه على حياة صلاح الدين وعصره . ولا تزال كتابة هؤلاء وأولئك — كاملة كانت أو فى قطع متناثرة — فى متناول الدارسين .

* * *

١ – ابن أبى طى
(٥٧٥ هـ – ... هـ)

وأول أولئك الخمسة ، هو يحى بن أبى طى النجار الغسانى الحلبى ، والمعروف فى كتب التاريخ بابن أبى طى (ولد ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م) . كان أبوه رئيس نقابة النجارين بمدينة حلب ، وأحد زعماء الشيعة بها ، وعيناً من أعيانها المبرزين ، والمولود فى الثلث الأول من القرن الثانى عشر الميلادى . تفقه الوالد فى الدين ، وعارض السلطان نور الدين ، معارضة أدت إلى إبعاده عن حلب ٥٤٣/١١٤٨ ، ونفيه إلى حران ٥٥٣/١١٥٧ م . أنجب كثيراً من الأولاد ، ماتوا صغاراً . ورزق فى ٥٧٥/١١٨٠ من زوجته الصورية ولدا أسماه يحى ، عقد عليه كل آماله فى الحياة . سمع يحى عن والده وعن شيوخ حلب . وعاش عيشة هادئة مطمئنة ، مكّنته من تصنيف كثير من الكتب فى اللاهوت والفقه والفلسفة ، وصنف فى التاريخ وحده ما ينيف على العشرة . ومنها كتاب « كنز الموحدين فى سيرة صلاح »[١] الذى أشار إليه أبو شامة عرضا ، فى حديثه عن تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد الفاطمى بقوله « . . وهذا الذى ذكرناه من قصة شاور ، وما جرى بسببه فى الديار المصرية ، إلى أن تمت وزارة صلاح الدين ، قد

(١) راجع قائمة مؤلفاته التاريخية فى Cahen:Claude:La Syrie du nord à l'Epoque des Croisades. Paris 1940 p. 55

وجدته مبسوطاً على زيادات وفوائد ، فى كتاب ليحى بن أبى طى فى السيرة الصلاحية ، فأحببت ذكره مختصرا »[1]. وأشار أبو شامه فى مكان آخر إلى هذا الخبر بقوله ، ذكر ذلك يحى بن أبى طى فى كتاب السيرة الصلاحية »[2].

ويعتبر تاريخ ابن أبى طى مصدرا على جانب كبير من الأهمية ، لأن مؤلفه تناول بعناية ودقة تاريخ العالم الإسلامى كله ، وأعطى مدينة حلب قدراً ملحوظاً من اهتمامه ، ورتب ابن أبى طى تاريخه على السنين على قول حاجى خليفة[3] ، وهى طريقة الحوليات الشائعة بين مؤرخى العصر الوسيط . ظل تاريخ ابن أبى طى فى متناول أخلافه من المؤرخين حتى زمن ابن أبى الفرات ، أى القرن الخامس عشر ، وقيل حتى زمن ابن الملة ، أى القرن السادس عشر الميلادى ، ثم اختفى ككل ، على حين بقيت بعض أجزاء هامة منه ، ينقلها الخلف عن السلف ، ولا سيما السنيون منهم ، فنقل عنه أبو شامة ، وابن شداد الجغرافى ، وابن عبد القادر ، وابن ميسر ترجيحا[4].

أرخ ابن أبى طى للسلطانين نور الدين وصلاح الدين تاريخاً ، يعتبر

---

(١) أبو شامة حـ١ ص ١٦٥ — طبعة وادى النيل .

(٢) نفس المرجع حـ١ ص ١٠٩

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون حـ١ ص ٢١٤ — الطبعة الأولى .

(٤) Cahen : op. cit. p. 57 - Runciman Ahistory of the Crusades. Cambridge 1952 V 1 p. 481

همزة الوصل بين نهاية حكم الأول وبداية عصر الثانى ، وعلى الرغم من اتفاق المذهب — وهو السنى — عند كل من السلطانين ، فإن ابن أبى طى يصور نور الدين فى صورة الحاكم المستبد المتعصب لمذهبه المتحيز لأهله ، والمضطهد لمخالفيه . لذا انتقد والده سياسة نور الدين ، فنفاه وحبس أفكاره وآراءه عن الرأى العام ، وفى هذا المعنى يقول أبو شامة « فإن نور الدين كان قد أذل الشيعة بحلب ، وأبطل مشاعرهم وقوى أهل السنة ؛ وكان والد ابن أبى طى من رؤوس الشيعة ، فنفاه من حلب ، وقد ذكر ذلك كله ابن أبى طى فى كتابه،مفرقا فى مواضع. فلهذا نراه فى كتابه « كبير الحمل على نور الدين رحمة الله ، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه ، مما لا يليق به ، والله أعلم[1] » .

وتوقع الباحث أن ينهج ابن أبى طى نهج أبيه ، فيعارض صلاح الدين ، غير أن سياسة التسامح التى جرى عليها صلاح الدين جذبت إليه معارضى نور الدين ؛ وبات واضحا من النصوص التى أوردها أبو شامة وغيره عن ابن أبى طى ، أنه أيد وآزر صلاح الدين فى أفعاله وأقواله ، ولم يذهب ما ذهب إليه متطرفو الشيعة من إشارتهم إلى فشل حصار صلاح الدين سنة ١١٧٦ لمدينة مصياف ،عاصمة الطائفة الإسماعيلية ، وعجزه عن الاستيلاء عليها ، بل علل أبو طى رفع حصار صلاح الدين لهذه المدينة بأسباب سياسية وعسكرية ، تتعلق بموقف الصليبيين

(١) كتاب الروضتين حـ ١ ص ١٧٤ . مطبعة وادى النيل

من تحركات صلاح الدين فى سوريا[1]. وعلى رغم الشهرة التاريخية التى نالها ابن أبى طى بين المؤرخين، وعلى رغم اعتماد أبى شامة على تاريخه، اعتمادا واضحا فى كتابه «الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية». فإنه أسقط اسمه من قائمة المصادر التى أشار إلى استخدامه لها[2]. ولم يشر أبو شامة عن أى كتاب من كتب ابن أبى طى التاريخية اقتبس. وكيفما كان الأمر فإن أسلوب ابن أبى طى — كما ورد فى مقتبسات أبى شامة — مجرد من الزخرف، واقعى، مختصر، مباشر فى معالجته للموضوع، وهو يشبه فى هذا كتابة ابن شداد.

٭ ٭ ٭

٢ — ابن الأثير
(٥٥٥ هـ — ٦٣٠ هـ)

وثلاثة مصادر من الأربعة الباقية المعاصرة لصلاح الدين، كتبها مؤرخون شرقيون — ليسوا سوريين ولا مصريين — ألمعهم شهرة هو أبو الحسن على ابن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى، المعروف بابن الأثير الجزرى، الملقب عز الدين (٥٥٥/

(١) كتاب الروضتين حـ١ ص٢٦٢ مطبعة وادى النيل و Gibb : The Achievement of saladin : bulletin of John rylands V. 35 No 1 Sep. 1952. p. 45

(٢) أبو شامة حـ١ ص٨ نشر حلمى

٦٣٠ هـ - ١١٦٠/١٢٣٨م). ولد ابن الأثير بجزيرة ابن عمر الواقعة على نهر الفرات ، حيث كان والده يشغل وظيفة هامة بها ، ثم رحلت العائلة إلى الموصل فى خدمة أمراء البيت الزنكى : فتولى أخوه الأكبر أبو السعادات المبارك - الملقب مجد الدين - ديوان الرسائل لعز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل ؛ أما أخوه الثانى أبو الفتح نصر الله بن أبى الكرم ضياء الدين ، فالتحق بخدمة صلاح الدين فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، وفى شوال منها انتقل إلى خدمة ولده الملك الأفضل. وظل ملازما له بعد وفاة والده السلطان صلاح الدين (١) فاستوزره الأفضل واستبد الضياء به، وأفسد عليه أحوال دولته برأيه الفاسد، على قول المقريزى (٢).

نشأ ابن الأثير نشأة علميـــة ارستقراطية اقطاعية فى كنف البيت الزنكى . صاحب الصدارة فى توحيد قـــوى المسلمين، وحركة الجهاد ضد الصليبيين، والموجه للسياسة الإسلامية الكبرى. تنقل ابن الأثير بين المدن الإسلامية الكبرى : الموصل وبغداد ودمشق والقدس ، طالبا وسفيرا، فهو عليم بالتيارات السياسية المعاصرة، وعارف أسباب الأحداث الكبرى الواقعة فى أيامه ، ما ظهر منها وما بطن ، ثم عكف على تدوين ما جمعه، وما شهده فى كتابين من كتب التاريخ . خصص أولهما لأمراء البيت الزنكى، ونشأة ملكهم بالموصل سنة ٤٧٧ هـ . أى منذ ولاية آق سنقر، صاحب الموصل ووالد عماد الدين زنكى، وامتداد

---

(١) راجع ابن خلكان حـ١ ص٤٣٨ و٥٥٧ و حـ٢ ص٢٠٨ طبعة بولاق

(٢) السلوك حـ١ قسم ١ ص ١١٨

هذا الملك الزنكى إلى المدينتين الكبيرتين حلب ودمشق ، ثم تقلصه وعودته إلى الموصل أخيرا .

واحتفظ أفراد من هذا البيت بقوتهم حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ،وأطلق ابن الأثير على هذا الكتاب« تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » وانتهى فيه بانتهاء سنة ١٢١١سنة م[١] (٦٠٧ هـ) وهى بدء ولاية القاهر مسعود الذى أهدى إليه الكتاب ، اعترافا بفضل أسلافه على أسرة ابن الأثير ؛ تحدث فيه ابن الأثير المؤرخ عن عظمة البيت الزنكى،رب نعمته، وصاحب الفضل فى تربيته وتنشئته ،فهو تاريخ محلى، مقصور على الموصل والمواصلة؛ وحين يصل ابن الأثير فيه إلى ١١٧٤م وما بعدها . وهى السنة التى أقبلت فيها الدنيا على صلاح الدين ، وأدبرت عن سادته الأتابكة،يحبس المؤرخ مشاعره وإحساساته، ويعجز عن الإسهاب فى تدوين الأحداث المبكية،التى أنزلها بهم صلاح الدين ، والتى حلت بهم بعد وفاة كبيرهم السلطان نور الدين [٢] . ولذا جاء تاريخ المواصلة خاليا من روح النقد ، وتنقصه قواعد الجرح والتعديل،على الرغم من أنه حوى أحداثا وتفاصيل تاريخية، لم تردعند مؤرخ غيره[٣]،اعتمد المؤرخ على الثقات ـ وفى مقدمتهم والده ـ فى الأحداث

(١) راجع مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين R. H. O. Tome II deuxieme partie

(٢) راجع مقدمة Reinaud : Extraits des Historiens arabes Relatifs aux guerres des croisades p. 481

(٣) Runciman : op. cit V. II p. 481

السابقة لسنة مولده، وهى ٥٥٥ هـ . أما مابعدها، فيعتبر ابن الأثير نفسه مصدرا رئيسيا لحوادثها [١] . ويبدو أن تاريخ المواصلة اتخذ مصدراً لواحد أو اثنين من كتب تاريخ الموصل، أحدهما صنف حوالى ٦٣٥ هـ والآخر حوالى ٥٧٥ — ٦٥٥ هـ [٢] .

أما كتاب ابن الأثير الثانى فى التاريخ، فعنوانه «الكامل فى التاريخ» وهو موسوعة كبيرة فى التاريخ العام للعالم الإسلامى . ابتداه بأول الزمان وأنهاه بعام ٦٢٨ هـ ؛ وهو من أمهات كتب التاريخ الإسلامى بلا ريب ، سار فيه صاحبه على طريقة الحوليات، مع ذكر جميع تفاصيل الأحداث التى تقع يوما بيوم، وشهرا بشهر، وسنة بعد أخرى. واستخلص ما وصله من مصادر تاريخية ، وتخير منها ما هو أقرب إلى الصدق لكل حادثة ، ثم أعاد صياغتها بأسلوبه الخاص الممتع ؛ وطريقته الخاصة الرتيبة ، مع التزام فواصل السنين للأحداث المتصلة وعدم تكرار ذكرها .

ويؤخذ على ابن الأثير ، أنه على رغم ذكائه وفطنته وفراسته — ظل حزبيا متطرفا متعصبا للزنكيين ، يحور روايات غيره ما استطاع فى سبيل إشباع نزعة نفسية نحو الزنكيين ، وسيطرت تلك النزعة على تفكيره ، حتى بعد زوال سلطان تلك الأسرة ، وبعد أن صار المؤلف

(١) راجع حلمى ص٢٩ فى مقدمته لكتاب أبى شامة حـ١ قسم ١

(٢) حاشية رقم ٤ من Cahen : op. cit. p. 58 .

حر فى إبداء آرائه ، حين عكف على كتابة تاريخه العام . ويعاب عليه كذلك ، أنه لم يذكر مصادره الأصلية التى اعتدى على روايتها بالتعديل والتحريف الكثير ، لدرجة أصبح البحث عنها من أشق الأمور وأعزها منالا (١) . ويبدو أنه كان متعمدا فى تضليل قرائه ، بدليل قوله فى هذا الصدد « ثم ذكر أصحاب التواريخ » — « وحكى أن بعض الحكماء بالأنساب والتواريخ قال » — « وحكى لى والدى » — « حدثنى والدى عن بعض خواصه قال » (٢) وكان فى مقدوره أن يذكر أسماء هؤلاء جميعاً ، وأسماء تواريخهم التى أشاروا إليها، بدلا من ذكر تلك العبارات التى يشقى الباحث فى سبيل الكشف عنها، والتى لا تفيد المؤرخ الحديث فى قليل أو كثير ، ولا تخدم البحث من جوانبه المتعددة .

على أن ابن الأثير أحسن الإجادة فى موازنة التأريخ لأقاليم العالم الإسلامى، ومعادلتها ومقارنة الأحداث الواقعة فى كل منها عاما بعام، واعتمد فى هذه الموازنة على الثقات المتخصصين فى كل إقليم؛ فاعتمد على الهمذانى، وابن حمدون، وابن الجوزى فى تاريخ العراق: وعلى عماد الدين الكاتب وزبدة التواريخ للحسينى فى تاريخ إيران؛ وعلى ابن شداد الصنهاجى فى تاريخ المغرب ؛ وعلى عماد الدين الكاتب ، وابن عساكر فى التاريخ السورى.

ويميل ابن الاثير إلى الإيجاز فى الرواية عن الحملة الصليبية الأولى ومستهل القرن الثانى عشر الميلادى ، مما يدل

(١) Runciman : op. cit. V. II p. 481—Ibid : p. p. 58—59

(٢) ابن الأثير : طبعة ليدن ح١١ ص٣٢ و٤١ و٤٥

على جهله بِتَسيِّر وأخبار بعض الأمراء الصليبيين، رغم انه عالج تاريخ سوريا والجزيرة معالجة تنم عن فهم وإلمام بأدق التفاصيل، أشبه ما تكون بالطريقة التي كتب بها ابن أبي طى تاريخه، مع أنه ليس من المحتمل معرفة ابن الأثير لابن أبي طى [٢].

ورواية ابن الأثير عن صلاح الدين والنصف الثـــانى من القرن الثاني عشر، مليئة بالأخبار القيمة وجديرة بالتقدير والثناء، والوقوف عندها وقفة فاحصة دارسة. غير أنها تعبر تعبيرا صحيحا عما يجرى فى نفسه من عداء طبعى لصلاح الدين، إذ تصوره الرواية الأثيرية فى صورة البطل، الذى استخدم كل مواهبه العسكرية والسياسية، لإشباع أطماعه العائلية ولبناء إمبراطورية واسعة مما حمل الأستاذ جب على إمكان موازنة صلاح الدين بنور الدين من هذه الزاوية [٢].

على أن هذا العداء لم يقلل من إخلاص ابن الأثير وتقديره وإعجابه بصلاح الدين، إلا أنه إعجاب مشوب بالحقد والحسد، يفسره قول ابن الأثير نفسه «ماتبالى يا ابن أيوب، أى موتة تموت، يركبك ملك سلجوقى، ويُسوى قماشك ابن أتابك زنكى» [٣]. وذلك حين أراد صلاح الدين الركوب والمسلمون على حصار عكا (١١٨٩-١١٩١ م) فعضده معز الدين بن قلج أرسلان صاحب ملطية، وسوّى ثيابه

---

(١) حاشية رقم ١ p. 59 وحاشية رقم ٢ Cahen ; op. cit. p.60

(٢) gibb : op· cit. p. 47

(٣) ابن الأثير حـ١٢ ص٥٠

علاء الدين فرخشاه بن عز الدين ، وهو حفيد صاحب الموصل عماد الدين زنكى، فأوغر ذلك الموقف صدر ابن الأثير وآله ،وتعجب لتغير الحال بأحد أمراء الموصل بهذه الصورة المؤسفة . واعتمد ابن الأثير فى التاريخ لعصر صلاح الدين على بطانته . وأخصهم بالذكر عماد الدين الأصفهانى ، فاستوعب كل رواياته ، وأعاد صياغتها محرفة منقودة ، مع خليط من مشاهداته وذكرياته الشخصية [١] . إذ أن الأحداث التاريخية بعد سنة ١١٧٤ م أى بعد وفاة نور الدين وقعت على مسمع ومرأى من ابن الأثير ، منذ أن كان سنة ١١٧٦ م . صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر ، يقرأ ويسمع على شيوخها [٢] .

وحين انتصر صلاح الدين تلك السنة على المواصلة فى وقعة تل السلطان بستة آلاف جندى مصرى، مقابل عشرين ألف جندى موصلى على قول العماد ، وهو القول الذى اعتبره ابن الأثير تحيزا من العماد لصلاح الدين ، قصد منه تعظيم صاحبه،نفى ابن الأثير هذا القول بعد أن أحصى جند المواصلة ستة آلاف ، نقلا عن جريدة العرض الموصلية التى أعدها أخوه مجد الدين أبا السعادات [٣] : وشهد ابن الأثير استماتة المواصلة فى الدفاع عن الموصل ضد هجمات صلاح الدين وحصاره لها فى يونيو سنة ١١٨٥ م . واشترك ابن الأثير فى الجهاد عام ٥٨٤/١١٨٨

---

(١) راجع Runciman. op. cit. V. II p.481-gibb : op. cit p. 45

(٢) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٨٧

(٣) نفس المصدر حـ ١١ ص ٢٨٤ و ٣٣٦

جندياً من جنود الموصل ، ولم تعجبه سياسة صلاح الدين مع الصليبيين المستأمنين ، لأنها أدت فى رأيه إلى تجمعهم فى مدينة صور، واستعصى فتحها على المسلمين ، ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين[1] » على قوله . واجتاز ابن الأثير أرض معركة حطين فى نفس السنة، أى بعد عام من وقوعها ، ورآها ملأى بعظـــام القتلى ، فعلق عليها بقوله فى عبارة نصها « فمن رأى القتلى لا يظن أن المسلمين أسروا أحداً ، ومن رأى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً »[2] . ونزل ابن الأثير ضيفاً على أحد أعيان حلب سنة ١٢٢٨/٦٢٦ ، وتردد إليه ابن خلكان . ثم اخترق الشام جنوبا إلى دمشق سنة ٦٢٧ هـ وعاد إلى حلب فى العام التالى . وعاود ابن خلكان التردد إليه ، حتى توجه ابن الأثير إلى الموصل حيث توفى بها ١٢٣٢/٦٣٠[3] . هذا هو التصوير الحقيقى لنشأة ابن الأثير وحياته الناطقة بإشهاده على الأحداث التاريخية فى العصر الصلاحى ، كتبها فى كتابه الكامل الذى نشره تورنبرج بالعربية فى ١٤ جزء فى ليدن ما بين ١٨٥١ — ١٨٧٦ ، فضلا عن نشر بعض فصوله فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين[4] .

* * *

(١) ابن الأثير حـ ١١ ص ٣٦٨ — gibb . The arabic Sources p. 67

(٢) ابن الأثير حـ ١١ ص ٣٥٤

(٣) ابن خلكان حـ ١ ص ٤٣٨

(٤) Runciman op. cit. V. I p. 333-R. H. C. op. cit. 1 iere T. et deuxieme partie

٣ — ابن شداد
(٥٣٩ هـ — ٦٣٢ هـ)

ومن عجب الإتفاق أن يساهم موصلى آخر بنصيب كبير فى التأليف لعصر صلاح الدين ، هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد[١] (٥٣٩ / ١٤٤٥ — ٦٣٢ / ١٢٣٤) ولد بالموصل ، ونشأ فى كنف أخواله بنى شداد لوفاة والده فنسب إليهم . أخذ عن شيوخ الموصل والبصرة وغيرهما ، ثم رحل إلى بغداد ونزل معيداً بالمدرسة النظامية لمدة أربع سنوات ، وصعد إلى الموصل ٥٦٩/١١٧٣ مدرساً بمدرسة القاضى كما الدين بن الشهر زورى[٢] ، وسرعان ما اشتهر فى الأوساط الموصلية بالحكمة والاتزان، والرأى السديد والعقل الراجح فاختاره أمراء الموصل سفيراً لهم لدى البلاط الخليفى وأمراء المسلمين، ففى ١١٨٢ أسفر إلى بغداد سائلا الخليفة العباسى الناصر لدين الله الشفاعة للمواصلة عند صلاح الدين لرفع الحصار عن مدينتهم ، وفى هذا المعنى يقول ، « وكنت إذا ذاك فى الموصل ، فسيرت رسولا إلى بغداد مستنجداً بهم[٣] » وجانب التوفيق سفارته ، مما جعل عز الدين صاحب الموصل يرسله بعد ذلك بعامين أى فى ١١٨٤ م ، نائباً عنه

---

(١) هو غير أبو على محمد بن على بن عبد الرحمن بن شداد المتوفى سنة ٦٨٤هـ وصاحب مخطوط . الاعلاق الخطيرة فى تاريخ الجزيرة

(٢) ابن خلكان حـ٢ ص ٤٦٦ — ٤٦٨ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية طبعة المؤيد ص ٤٦ .

في مؤتمر سفراء المسلمين الذى دعا إليه صلاح الدين بدمشق لتنسيق أعمال الجهاد ضد الصليبيين . وأسفرت مناقشات المؤتمر عن أعجاب ابن شداد بصلاح الدين ، فأيد سياسته على طول الخط ، مخالفاً فى ذلك وجهة نظر أميره[١] . كما أعجب صلاح الدين بمقدرة ابن شداد فى العلم والسياسة ، فعرض عليه أن يكون قاضياً بمصر ومدرساً فى مدرسة « منازل العز » وخطيب مصر[٢] ، فاعتذر ابن شداد. وعبر عن أعجاب صلاح الدين به ومحبته له بقوله « ومن تلك الدفعة ثبت فى نفسه الشريفة منى أمر، لم أعرفه إلا بعد خدمتى له[٣] » . وبذل ابن شداد جهداً كبيراً فى مفاوضة صلاح الدين نائباً عن عز الدين أمير الموصل ٥٨١ / ١١٨٦ ، وإليه يرجع فضل إقرار قواعد الصلح النهائى بين الجانبين المصرى والموصلى[٤] .

وابتسم الحظ السعيد لابن شداد ٥٨٣ / ١١٨٧ حين شد الرحال حاجا إلى مكة المكرمة ، واتفق له العود منها على الشام لقصد زيارة بيت المقدس، فوصل إلى دمشق واستراح بها قليلا، ثم خرج إلى القدس، وصلاح الدين وقتذاك على حصار كوكب مارس سنة ١١٨٨ (٥٨٤) فاستدعاه إليه ليسمعه جزءاً من الحديث ، فأفاض وأبدع فى شرحه

---

(١) المقريزى : السلوك ، حـ١ قسم١ ص ٨٢

(٢) ابن خلكان حـ ٢ ص ٤٦٨

(٣) ابن شداد ص ٥٢

(٤) أبو شامة حـ٢ ص٦٤

إلى حد اعجاب صلاح الدين به ، فلمـــا خرج ابن شداد من عنده تبعه سكرتيره العماد الأصفهانى . وأبلغه رغبة السلطان فى مقابلته عند العودة من الزيارة . فلما عاد ابن شداد من زيارة القدس اجتمع بصلاح الدين على حصن الأكراد ، وقدم له كتاباً جمع فيه فضائل الجهاد فأعجبه . وعـــزم ابن شداد على المسير إلى الموصل فرفض صلاح الدين السماح له بالسير وأمسك به ، وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف فى ٢٨ يونيه ١١٨٨ ، ومن هذا التاريخ لم يفارق ابن شداد صلاح الدين ساعة من ليل أو نهار . وانقطع بن شداد يوما عن مصاحبة صلاح الدين وهو على خراب مدينة عسقلان لمرض اعتراه فأرسل صلاح الدين من سأل عن صحة ابن شداد ومزاجه ثلاث مرات، مع اشتغال قلب صلاح الدين بأمر عسقلان[1] وظلت صلة بن شداد بصلاح الدين على هذه الصورة حتى حضر وفاته ١١٩٣ م .

ثم توجه ابن شداد سنة ٥٩١ / ١١٩٥ إلى حلب ، حيث عينه صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين وزيراً وقاضياً له ، فكان أول عمـــل قام به هو جمع كلمة الأخوة أولاد صلاح الدين وتحليفه بعضهم لبعض[2] . وتطلب هـــذا العمل سفره من حلب إلى القاهرة أكثر من مرة ، فى أعوام ٥٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٩ هـ[3] ،

(١) السيرة الصلاحية لابن شداد ص ١٨١

(٢) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ١٤٠

(٣) راجع التفاصيل فى السلوك حـ ١ قسم ١ ص ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ .

سعياً وراء إصلاح ذات البين وجمع الكلمة . وظل ابن شداد محتفظا بمكانة رفيعة ، ونفوذ كبير في حلب أيام الملكين الظاهر والعزيز ، بيده حل الأمور وعقدها ، لم يكن لأحد في الدولة معه كلام . فاعتنى بترتيب أمور حلب : وجمع الفقهاء بها ، وعمر مدارسها ، ووقف عليها المال الكثير ، واصلا الليل بالنهار ، يعمل في هدوء وروية ، حتى أقعدته الشيخوخة عن الحركة وذبل . وأصبح ، بسبب الضعف كالطائر الصغير عديم الأجنحة[1] . على قول ابن خلكان ، أحد تلاميذه . وأحد الذين حضروا صلاته ودفنه ٦٣٢ / ١٢٣٤ .

يتفق ابن شداد مع ابن الأثير في موصليته ونشأته وتدينه وخدمته للأتابكة ، ويختلف عنه في التصنيف ، موضوعا ونهجا ، فلم يؤلف تاريخا عاما كابن الأثير ، ولم يكن ناقدا أو حزبياً كابن الأثير ، بل كان واقعيا يدون ما يقع تحت سمعه وبصره ، تدوينا يعبر تعبيرا صادقا عن مشاعر صلاح الدين وإحساساته ، باسطا خططه السياسية والعسكرية في أسلوب سهل ممتنع ، في كتاب أسماه «السيرة الصلاحية والمحاسن اليوسفية» نشره شولتنز Schultens بين عامي ١٧٣٢ — ١٧٥٥ م وطبع بالقاهرة ١٣١٧ هـ ، ونقله إلى الإنجليزية كوندر Conder ١٨٩٨ . كما نشره دي سلين De Slane . في الجزء الثالث من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين[2] . مع مقدمة مفيدة . اعتمد ابن شداد فيه حتى أحداث

---

(١) ابن خلكان طبعة باريس حـ ١ ص ٨٥٢ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية حـ١ ص ٢١٠ مادة ابن شداد

١١٨٨م. على ثقاته . أما الأحداث الواقعة من هذه السنة وما بعدها فمن مشاهداته الشخصية ، وهو يؤكد هذا بقوله « وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الاولى سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخوله الساحل ، وجميع ما حكيته قبلى ، إنما هو روايتى عمن أثق به ممن شاهده . ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته ،أو أخبرنى به من أثق به ،خبرا يقارب العيان والله الموفق[١] »ثم يعود فيطمئن القارىء إلى مصدر روايته وصحتها،إذ يقول فى موضع آخر «وماسطرت إلاما شاهدته ، أو أخبرنى الثقة به وحققته[٢] » . وخبره عن القافلة المصرية التى اعترضها رتشارد ١١٩٢م — وهى فى طريقها إلى صلاح الدين بالقدس — أكبر شاهد على أمانته فى النقل وتحرى الحقيقة. ونَصُّ الخبر «وقتل من العدو زهاء مائتى فارس على رواية، أو عشرة أنفس على رواية . ولم يقتل من المسلمين معروف، سوى اثنين استشهدا[٣] » .

صور ابن شداد فى هذا الكتاب الكفاح الطويل المرير الذى مارسه صلاح الدين لبناء قوته الداخلية، ويَتتبَّع فن قيادته فى مراحل جهادها، مع رجال الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بنوع خاص،ولم يخدع فيه بعبادة البطولة، كما فعل ابن الأثير فى مديحه للمواصلة . ولذا يندر العثور على مصدر تاريخى

(١) ابن شداد ص ٧١
(٢) نفس المصدر ص ٢٨
(٣) ابن شداد ص ٢٠٩

لأى أمير من أمراء العصر الوسيط ، يشبه فى قيمته التاريخيه السيرة الصلاحية لابن شداد[١] .

حقاً لقد مدح ابن شداد صلاح الدين بصراحة ، وتمشى مع النظرية الدستورية الحديثه القائلة بأن الملك لا يخطىء . وأخلص بحق لواجب وظيفته ؛ وكتب بوضوح ما رآه تماماً ، وفكر تفكيراً عميقاً فيه قبل أن يكتبه ، حتى حملت كتابته طابع الصدق ، ونطقت بحيدته ونزاهته ، وبعده عن التعصب ، أو الميل الشخصى أو المبالغة الشرقيه على قول لينبول[٢] . هذا هو ابن شداد ، الفنى فى صياغة معاهدات الصلح ، والدبلوماسى فى سفاراته ، والمؤرخ المدقق فى سيرته ، والمربى الفاضل فى أستاذيته ، والعادل فى قضائه ، والمراسل الأمين فى مشاهداته وأخباره .

* * *

٤ - العماد الكاتب
(٥١٩ — ٥٩٧ هـ)

ثم يأتى دور المؤرخ الرابع الفارسى النشأة ، وهو عبدالله محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى ، المعروف بالعماد الكاتب (٥١٩/٥٩٧ - ١١٢٥/١٢٠٠م) وبابن أخى العزيز . ولد بأصفهان ونشأ بها ، وقدم

---

(١) gibb : The achievement . p. 45

(٢) Cahen ; op. cit p. 52—Lane-poole : Saladin مقدمة

بغداد شاباً وطالبا بالمدرسة النظامية، وعاد إلى أصفهان. ثم رجع إلى بغداد مع أبيه ، واشتغل بصنعة الكتابة وبالوظائف الادارية ، فولاه الوزير بن هبيرة النظر بالبصرة ثم بواسط ، على عهد الخليفة المقتفى لأمر الله (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) وأثبت صلاحيته للاداره والوظيفة . ولما توفى ابن هبيرة ، اعتقل الديوان بعض أصحابه ومن بينهم العماد سنة ٥٦٠ هـ. ولعله قاسى ألواناً من العذاب فى سجنه ، فكتب قصيدة من الحبس إلى رئيس الرؤساء وأستاذ الدار الخليفية ، يشكو حاله فأطلق سراحه سنة ٥٦٢ هـ، ورحل العماد فوراً إلى دمشق، وسلطانها إبانئذ نور الدين محمود زنكى ، فقدمه إليه القاضى كمال الدين الشهرزورى ورحب به السلطان نور الدين وجعله صاحب سره ، وولاه الإشراف على ديوان الإنشاء العربى والفارسى . وفى سنة ١١٧١/٥٦٧ أسفره نور الدين إلى بغداد فى مهمة لم تفصح عنها المراجع ، وبعد عودته فوض إليه التدريس بالمدرسة النورية الشافعية ، والمعروفة منذئذ بالعمادية نسبة إليه ، ورتبه نور الدين فى إشراف الديوان سنة ١١٧٢ .

وعلم نجم الدين أيوب أحد أعيان الدماشقة وقتئذ، ووالد صلاح الدين بوصول العماد إلى دمشق ـ وكان يعرفه منذ ولايته على تكريت ـ فبادر لتبجيله والسلام عليه فى منزله، وأكرمه وميزه عن الأعيان ، وعرف به ابنه صلاح الدين[1]. وبعد وفاة السلطان نور الدين ١١٧٤ م خاف

(١) راجع : معجم الأدباء لياقوت : الطبعة الأخيرة حـ١٩ ص١٢ و١٣ و١٤ ==

العماد على نفسه من جماعة ولد نور الدين الملك الصالح اسماعيل وانقسام السوريين إلى حزبى الدماشقة والحلبيين ، فرحل من دمشق إلى الموصل ، ومكث بها حتى بلغه خروج صلاح الدين من مصر قاصداً دمشق ، ليستولى عليها بدعوة من أهلها ـ فعزم العماد على الرجوع إلى الشام ، وخرج من الموصل نهايه ١١٧٤ م ، فوصل إلى دمشق وسار منها إلى حلب ، وصلاح الدين يومئذ نازل عليها ، فلاقاه العماد فى حمص (مارس سنة ١١٧٥) بعد الاستيلاء على قلعتها ، فلزم بابه ، وقرره صلاح الدين من ذلك اليوم ، نائباً فى الكتابة الديوانية عن وزيره القاضى الفاضل ، بسعاية نجم الدين بن مصال وتزكيته[1].

وقال صلاح الدين للعماد حين قدمه إليه القاضى الفاضل « أنت كاتبى ووزيرى . وقد رأيتك على وجهك البركة ، فإذا سلمت غيرك يحدث الناس[2] ».

وعلق القاضى الفاضل على قول صلاح الدين بعبارة مليئة بالمدح والتقييم لشخصية العماد ، نصها : «هذا يحل التراجم ، وربما أغيب أنا ، ولا أقدر على ملازمتك ، فإذا غبت قام مقامى ، وقد عرفت العماد وخدمته فى الدولة النورية فاستكتبته[3] » . ومنذئذ لزم العماد باب صلاح الدين ، ينزل لنزوله ،

= ابن خلكان طبعة بولاق حـ ٢ ص٥٧ و٩٨ و ٩٩ Cahen : op. cit p. 50 و Brockelmann ; g. A. 1 band p. 315

(١) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٦٠.

(٢) التاريخ الحربى : المؤلف ص ٦٠

(٣) مخطوط بن واصل ص ٢٠٨ – gibb : The arabic Sources of the life of Saladin-Jeurnal of medieval Studies Jan, 1950p. 59

ويرحل لرحيله ، يغشى مجالسه السياسية والعسكرية والعلمية . دارت بينه وبين القاضى الفاضل مراسلات ومحاولات لطاف ، وصفه فيها القاضى الفاضل بقوله «العماد الكاتب، كالزناد الوقاد[1]». جعله صلاح الدين من جملة الصدور المعدودين ، والأماثل المشهورين ، يتكلم باسم السلطان، ويعلن أهدافه ومراميه فى السياسة والحرب، يضاهى الوزراء ويجرى فى مضمارهم ، فإذا توفر القاضى الفاضل على مصالح مصر، لازم العماد صلاح الدين فى سلمه وحربه .

من ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - أنه دخل معه مصر سنة ١١٧٧ ، وصحبه صلاح الدين فى زيارته التفتيشية بشمال الدلتا، لمشاهدة تحصينات الثغور البحرية، يدون ملاحظات السلطان وتوجيهاته لكبار دولته . واعتذر العماد عن الاشتراك مع السلطان فى غزوة عسقلان وغزة فى أكتوبر من تلك السنة لمرض أصابه[2]. وغادر العماد مصر مع صلاح الدين فى سفرته الثانية إلى دمشق سنة ١١٧٨م . وحضر معركة حطين الشهيرة سنة ١٠٨٧ . واستعرض الأسرى بقلمه[3] واحدا واحدا . وشهد التوفيقات الصلاحية فى تلك السنة ، وكتب بقلمه كتب المستأمنين من الصليبيين كما كتب البشائر إلى الآفاق بالنصر . ومن قوله فى فتح القدس ، «فكتبت فى ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٦ ص ١٧٩ .

(٢) gibb : The arabic Sources p. 59

(٣) أبو شامة . حـ ٢ ص ٨ و ٩٦ .

وعبارة[1]، وفى معركة عكا (١١٨٩ — ١١٩١) قام بدور المراسلين الحربيين، من حيث الدقة فى الرواية والأخبار عنها، يصورها بقوله: «وركبت أنا والقاضى بهاء الدين بن شداد لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد[2]، واختلفت أحوال العماد بعد وفاة السلطان صلاح الدين سنة ١١٩٣ م، ولم يجد فى وجهه باباً مفتوحاً، فلزم بيته بدمشق، كما لزم أستاذه القاضى الفاضل بيته بالقاهرة، وأقبل العماد على التأليف حتى توفى بدمشق سنة ٥٩٧ ﻫ، ودفن فى مقابر الصوفية عند المُنَيبع.

ألف العماد خمسة كتب فى التاريخ، وأقدمها تاريخ السلاجقة وعنوانه «نصرة الفِطرة، وعُصرة القَطرة، فى أخبار الدولة السلجوقية». تحدث فيه عن أصل العائلة السلجوقية وعن حكم ملكشاه وأخلافه الأولين، ولم تفته الإشارة إلى ذكريات الوزير الفارسى أنو شروان المتوفى سنة ٥٣١/١١٣٦، معتمدا فى ذلك كله على مراجع لم يشر إليها العماد. ويتضمن الجزء الأخير من هذا الكتاب ذكريات العماد الشخصية، حتى لحظة مغادرته العراق سنة ١١٦٦ م، وهى السنة التى توقف عندها تصنيفه فى هذا الكتاب، الذى لم يكتبه إلا حوالى

---

(١) العماد: الفتح القسى فى الفتح القدسى: ص ٤٨ — ٥٩ : Lane-Poole
Saladin p. 235.

(٢) الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٢١٨ .

سنة ١١٨٠م، وبعد ذلك بأربعة عشر عاما، اختصر البندارى، المؤرخ الفارسى العراقى المعروف، كتاب السلجوقية للعماد[١].

ولما وصل العماد إلى الشام، بدأ تأليف كتابه الثانى وعنوانه «البرق الشامى» استهله بالحديث عن نفسه، وتاريخ حياته ونشأته، ورحلته من العراق إلى الشام، وماوقع له فى خدمـــة السلطانين نور الدين وصلاح الدين، وذكر بعض فتوحاتهما فى الشام وأطرافها. والبرق من كتب التاريخ الممتعة، يقع فى سبعة مجلدات، لايوجد منها سوى الجزء الثالث فى مكتبة Bodleian بجامعة أكسفورد برقم ١١ Bruce، والجزء الخامس بنفس المكتبة برقم Marsh 425. وهما محفوظان بتلك الجامعة منذ ١٨٦١م[٢]، ويوجد من هذا الكتاب بعض مقتطفات فى لينجراد بروسيا[٣]. وأطلق العماد على هذا الكتاب «البرق الشامى» لأنه شبـّه أوقاته فى تلك الأيام بالبرق الخاطف، لطيبها وسرعة انقضائها، على قول ابن خلكان[٤]. أى أن كتاب البرق الشامى يشمل أحداث الفترة التاريخية الواقعة بين عامى ٥٦٢هـ (وهى سنة قدومه إلى الشام) و ٥٨٩هـ (وهى سنة وفاة صلاح الدين).

---

(١) Cahen : op. cit. p. 51 وبروكلمان G. A. L. ح ١ ص ٣١٥ .

(٢) Cahen : op. cit. p. 51

(٣) أبو شامة. نشر حلمى ح ١ ص ٨ و ص ٢٦ gibb : The ach p. 46

(٤) ابن خلكان ح ٢ ص ٩٨ — حاجى خليفة : كشف الظنون ح ١ ص ١٥١

وغداة وفاة صلاح الدين شرع العماد فى تأليف كتابه الثالث ، وعنوانه « الفتح القسى فى الفتح القدسى »[1]. اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين لبيت المقدس ، وسيرته وصراعه مع الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة : فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وانتهى به فى ٥٨٩ هـ وهى سنة وفاة صلاح الدين . حرص العماد فى هذا الكتاب على تسجيل أعمال صلاح الدين وحروبه فى تلك الفترة ؛ فى أسلوب نثرى مسجوع ، يصعب على الباحث استخراج الحقائق التاريخية منه . لأن العماد اعتمد فى طريقته على التجميل اللفظى ، وربما دعته إليها طبقته الارستقراطية التى عاش فيها . وهى طبقة الخلفاء والسلاطين والوزراء ، وأضرابهم على قول أحمد أمين [2]. وضع العماد كتابه « الفتح » ... فى مجلدين ، وقيل فى مجلد كبير [3]. وطبع مرات فى مصر وأوربا ، منها طبعة ليدن ١٨٨٨ .

وأورد أبو شامة فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » خلاصة المادة التاريخية الموجودة فى مؤلفات العماد الثلاثة السابقة . البرق والسلجوقية والفتح ، وخص الأول والأخير منها بالتعليق عليهما بقوله « إن العماد فى كتابيه ، طويل النفس فى السجع والوصف ... فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها ، استحسنتها فى

(١) أسماه ناشرو « خريدة القصر ، وجريدة العصر » للعماد الفتح والصحيح الفتح ، كما وردت فى المصادر الشرقية والغربية .

(٢) مقدمة خريدة القصر : نشر أحمد أمين وآخرين .

(٣) ياقوت : حـ ١٩ ص ١٩ .

سنة ١١٨٠م ، وبعد ذلك بأربعة عشر عاما ، اختصر البندارى ، المؤرخ الفارسى العراقى المعروف ، كتاب السلجوقية للعماد[١].

ولما وصل العماد إلى الشام ، بدأ تأليف كتابه الثانى وعنوانه «البرق الشامى» استهله بالحديث عن نفسه ، وتاريخ حياته ونشأته ، ورحلته من العراق إلى الشام ، وماوقع له فى خدمـــة السلطانين نور الدين وصلاح الدين ، وذكر بعض فتوحاتهما فى الشام وأطرافها . والبرق من كتب التاريخ الممتعة ، يقع فى سبعة مجلدات ، لايوجد منها سوى الجزء الثالث فى مكتبة Bodleian بجامعة اكسفورد برقم ١١ Bruce ، والجزء الخامس بنفس المكتبة برقم Marsh 425 . وهما محفوظان بتلك الجامعة منذ ١٨٦١م[٢] ، ويوجد من هذا الكتاب بعض مقتطفات فى لينتجراد بروسيا[٣]. وأطلق العماد على هـذا الـكتاب «البرق الشامى» لأنه شبّه أوقاته فى تلك الأيام بالبرق الخاطف ، لطيبها وسرعة انقضائها ، على قول ابن خلكان[٤]. أى أن كتاب البرق الشامى يشمل أحداث الفترة التاريخية الواقعة بين عامى ٥٦٢هـ (وهى سنة قدومه إلى الشام) و٥٨٩هـ (وهى سنة وفاة صلاح الدين) .

---

(١) Cahen : op. cit. p. 51 وبروكلمان G. A. L. حـ ١ ص ٣١٥ .

(٢) Cahen : op. cit. p. 51

(٣) أبو شامة . نشر حلمى حـ ١ ص ٨ و ص ٢٦ gibb : The ach p. 46

(٤) ابن خلكان حـ ٢ ص ٩٨ — حاجى خليفة : كشف الظنون حـ ١ ص ١٥١

وغداة وفاة صلاح الدين شرع العماد فى تأليف كتابه الثالث ، وعنوانه « الفتح القسى فى الفتح القدسى »[1]. اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين لبيت المقدس ، وسيرته وصراعه مع الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة : فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وانتهى به فى ٥٨٩ﻫ وهى سنة وفاة صلاح الدين . حرص العماد فى هذا الكتاب على تسجيل أعمال صلاح الدين وحروبه فى تلك الفترة ؛ فى أسلوب نثرى مسجوع ، يصعب على الباحث استخراج الحقائق التاريخية منه . لأن العماد اعتمد فى طريقته على التجميل اللفظى ، وربما دعته إليها طبقته الارستقراطية التى عاش فيها . وهى طبقة الخلفاء والسلاطين والوزراء ، وأضرابهم على قول أحمد أمين [2]. وضع العماد كتابه « الفتح » ... فى مجلدين ، وقيل فى مجلد كبير [3]. وطبع مرات فى مصر وأوربا ، منها طبعة ليدن ١٨٨٨ .

وأورد أبو شامة فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » خلاصة المادة التاريخية الموجودة فى مؤلفات العماد الثلاثة السابقة . البرق والسلجوقية والفتح ، وخص الأول والأخير منها بالتعليق عليهما بقوله « إن العماد فى كتابيه ، طويل النفس فى السجع والوصف ... فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها ، استحسنتها فى

---

(١) أسماه ناشرو « خريدة القصر ، وجريدة العصر » للعماد الفتح والصحيح الفتح ، كما وردت فى المصادر الشرقية والغربية .

(٢) مقدمة خريدة القصر : نشر أحمد أمين وآخرين .

(٣) ياقوت : ﺣ ١٩ ص ١٩ .

مواضعها ، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع [1]، وعاد أبو شامة فأكد فى مُذَيِّلِه استخدامه لتصنيفات العماد بقوله « وأخباره مفرقة فى كتابى الذى سميته بالروضتين [2] ».

وأفرد العماد كتابا للأحداث التى أعقبت وفاة السلطان صلاح الدين أى من سنة ١١٩٣ الى ١١٩٦م ، أسماه « العُتبى والعُقبى ونحلة الرحلة » ذكر فيه اختلال الأحوال ، وتغير الأمور بعد موت السلطان صلاح الدين ، وماوقع من خلاف ، بين أهله وعماله ، أدى إلى نشوب الحروب الأهلية وتفكك الامبراطورية الأيوبية ، وتفريق كلمة المسلمين وإضعاف جهدهم .

أما خامس كتب العماد التاريخية ، فخصصه لتاريخ الأحداث الواقعة مابين سنة ١١٩٦ و ١٢٠٠ م ، وهى سنة وفاة المورخ ، وأسماه « خطفة البارق ، وعطفة الشارق [3] » . ومن سوء الحظ أن يفقد الكتابان ، ولم يرد عنهما فى كتب التاريخ اللاحقة إلا القليل المبتور .

هذه هى مؤلفات العماد التاريخية ، تحتل مكان الصدارة بين أصول القرن الثانى عشر الميلادى ، أخطر القرون التاريخية الوسيطه ، وأبلغها أثراً فى تاريخ الإسلام والحضارة ، تنطق بطول باع العماد فى صياغة التاريخ بطريقة نثرية مسجوعة ، دون تزوير للحقائق من أجل التزام القافية

(١) أبو شامة حـ ١ ص ٨ وحاشية رقم ٢ ص ٢٤ نشر حلمى .

(٢) أبو شامة . ذيل الروضتين الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ ص ٤٧ .

(٣) ابن واصل . نشر الشيال ص ٥ — ياقوت حـ ١٩ ص ١٩ : Cahen op. cit. p. 52

أو التملق لصلاح الدين . ولم يَحُل إعجاب العماد بصلاح الدين دون انتقاده إذا مادعت الضرورة إلى نقده، ودون أن يفقده هذا النقد ثقة صلاح الدين فيه . أو علاقته الطيبة معه . وهى نفس العلاقة التى حرص العماد على استمرار بقائها بينه وبين أستاذه القاضى الفاضل[١] .

لا شك أن قلم العماد الكاتب كان أشد وأنكى على الصليبيين من سيوف المجاهدين ، إذ به جمع صلاح الدين عساكر المسلمين ، وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم ، وحبب الاستشهاد إلى نفوسهم ، وآية ذلك قوله : « وكان يأمرنى بإجابة كتب الملوك ، فى حالتى سلمهم وحربهم ، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلى بقلمى[٢] » وشهد مؤرخو الغرب للعماد الكاتب بالصفات الحميدة ، ووصفوه بالتدين ونبل الخلق ، مؤيدين شهادتهم بحادثة وقعت للعماد سنة ٥٧٤/١١٧٨م . حين جلس صلاح الدين يستعرض الأسرى من الصليبيين لضرب أعناقهم ، وأن يتولى ذلك أهل الدين والعلم والتصوف من الحاضرين ، فتقدم إمامه الضياء الطبرى وضرب عنق بعضهم ، وتلاه الشيخ سليمان المغربى ، وجاء دور العماد الأصفهانى ، وأُمر بذلك فرفض أن يلطخ يده بدمائهم ، مكتفياً بأخذ أسير صغير ليربيه عنده[٣] .

---

(١) راجع Gibb : The. Achiev. of Saladin p. 46

(٢) كتاب الفتح للعماد ص ٣٤٥ .

(٣) أبو شامة حـ ٢ ص ٥ و ١١ — جيش مصر فى أيام صلاح الدين للمؤلف ص ١٨ — مقدمة كتاب : Reinaud ; Extraits des Historiens arabes

وكيفما كان تقدير المؤرخين لمؤلفات العماد التاريخية ، فإنه ألف في الأدب كتاباً عنوانه « خريدة القصر » لا تقل أهميته التاريخية عن أهميته الأدبية ، لأنه صور فيه أعمال صلاح الدين وحروبه تصويراً أدبياً رائعاً ، فهو مصدر تاريخي أدبي، جعل أبو شامة يستشهد به كثيراً في كتابه الروضتين . وخص العماد الخريدة لشعراء عصره والعصر الأقرب منه [1] .

* * *

٥ — القاضي الفاضل

(٥٢٩ — ٥٩٦ هـ)

وخامس المصادر العربية المعاصرة لصلاح الدين ، هو أبو علي محي الدين عبد الرحيم بن علي بن محمد اللخمي البيساني العسقلاني (٥٢٦ / ٥٩٦ — ١١٣٥ / ١١٩٩) ، (المعروف بالقاضي الفاضل) ، ولد بعسقلان ، وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان الأردنية . أرسله أبوه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة أواخر العهد الفاطمي ، فاشتغل بالأدب وحفظ القرآن ، وتخرج فيه لعهد الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) ، وكانت رئاسة هذا الديوان حينئذ إلى الموفق بن الخلال وابن قادوس . ولما ظهر نبوغ عبد الرحيم البيساني اتخذه ابن حديد ، قاضي الإسكندرية

---

(١) نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر « خريدة القصر وجريدة العصر » في جزءين باشراف المرحوم أحمد أمين .

كاتباً له على باب السدرة [١] . ثم ترك عبد الرحيم الإسكندرية بعد مدة إلى ديوان مصر فى عهد الخليفة الظافر (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ) فاختاره سكرتيراً له على قول البعض [٢] ، إلى أن نقله الوزير العادل بن رزيك ، فى عهد الخليفة الظاهر المتوفى عام ٥٤٩ / ١١٥٤ م إلى ديون الإنشاء . وأظهر القاضى الفاضل نبوغه فى إدارة الديوان وتنظيمه ، فأسند إليه أيضاً — فيما يبدو — ديوان الجيش الفاطمي على عهد الخليفة العاضد ، فلما تولى شاور الوزارة نقله إلى ديوان المكاتبات ، حيث اتصل بالكامل ابن شاور فاستكتبه ، وزاحم به كتاب القصر فثقل عليهم أمره [٣] . إلى أن وقعت فتنة الوزيرين ضرغام وشاور ، بسبب تنافسهما على تولى الوزارة الفاطمية وتغلب ضرغام على شاور . اعتقل القاضى الفاضل والكامل ابن شاور فى دار ملهم ، إلى أن جاءت الحملة السورية النورية بقيادة أسد الدين شيركوه ، وانتصر شاور وقتل ضرغار ، وأفرج عن المعتقلين ومن بينهم القاضى الفاضل .

ثم تولى أسد الدين الوزارة الفاطمية واحتاج إلى كاتب ماهر ، فأرسل إليه القاضى الفاضل ، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم ، وأن أسد الدين سيُقتل كما قتل من كان قبله ، فأرسلوا القاضى الفاضل إليه ، وقالوا لعله يقتل معه .

---

(١) خريدة القصر للعماد نشر أحمد أمين هامش ص ٣٥ حـ ١ .

(٢) راجع مقدمة الجزء الأول من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين. (R. H. O. Tome 1 eire)

(٣) أبو شامة حـ ٢ ص ١٥٩ .

فنخلص من مزاحمته لنا ، فكان من أمره . وأعجبَ أسدَ الدين نفاذُه وسمته ودينه ونصحه ، واستمر القاضي الفاضل فى الدولة المصرية ولم يزدد فى كل يوم إلا تقدماً ، بصدقه ودينه وحسن رأيه [١] .

ثم آلت الوزارة الفاطمية بعد وفاة أسد الدين سنة ١١٦٩ إلى ابن أخيه صلاح الدين ـ ولم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين ـ فأسند الى القاضى الفاضل كتابة الانشاء ، فأخلص فى تعليم صلاح الدين أسرار الحكم فى مصر وقواعده الادارية والمالية والعسكرية ، وقدم إليه أجل الخدمات حتى ١١٧٤م [٢] ، وهى سنة وفاة السلطان نور الدين محمود ، وانفراد صلاح الدين بحكم مصر وتأهبه للذهاب لدمشق لتوحيدها مع القاهرة . ومنذئذ حسن اعتقاد صلاح الدين فى القاضى الفاضل ، ووجد البركة فى رأيه ، فجعله وزيره وناصحه ومستشاره الاول .

ومن ثم ، أخذ القاضى الفاضل يتنقل مع صلاح الدين بين القاهرة ودمشق ، يحضر مؤتمراته السياسية مع أمراء المسلمين ، ويشترك فى أغلب حملاته العسكرية ضد الصليبيين ، وإذا حالت أعمال الدولة دون اشتراكه تخلف بالقاهرة أو دمشق ، حتى يعود صلاح الدين فيجتمع به ، يراجعه ويستشيره فى أمور السياسة والحرب . ومنها أن صلاح الدين علم وهو على حصار كوكب فى نهاية ١١٨٨ بقيام بقايا الفاطميين

---

(١) أبو شامة : حـ ١ ص ١١٦ و حـ ٢ ص ١٥٩ . — عمارة اليمنى : النكت حـ ١ ص ٥٣ . ابن خلكان حـ ١ ص ٣٥٨ — بروكلمان حـ ١ ص ٣١٦ .

(٢) راجع التاريخ الحربى : للمؤلف ص ٥١ و ٥٦ .

بمظاهرة شيعية ضده فى القاهرة لإقصائه عن الحكم، فأمر القاضى الفاضل بالذهاب فوراً إلى مصر، ليكون له عينا ولولده العزيز عوناً فى ضبط امور مصر واحوالها [١].

وكتب صلاح الدين وهو على حصار عكا ١١٩٠ م الى القاضى الفاضل بالقاهرة، يشكو له مسلك أمراء المسلمين معه، وضجرهم من طول الإقامة للجهاد. فرد عليه القاضى الفاضل، ناصحاً بسعة الصدر معهم؛ ورأى ان يكون الى جوار صلاح الدين، ناصحاً ومشيراً ومسكناً لثورة الأمراء، فغادر القاهرة فورا الى عكا فوصلها فى يناير سنة ١١٩١ [٢]. على انه ما كاد يصل القاضى الفاضل الى مخيم صلاح الدين على عكا، حتى ارسل الخليفة العباسى الى صلاح الدين فى طلب القاضى الفاضل إلى بغداد، لتصفية ما بين القاهرة وبغداد من خلاف فى السياسة الإسلامية العليا، فاعتذر صلاح الدين عن إسفاره متعللا بكثرة أمراضه وعدم تحمله مشقة السفر على قول المؤرخين(٣) وفى هذا دليل واضح على مكانة القاضى الفاضل فى العالم الإسلامى المعاصر، وعلى خبرته بالسياسة وعدم استغناء صلاح الدين عن مشورته لحظة واحدة.

ولم تكن تلك المشورة مقصورة على شئون الدولة والحكم. بل تعدتها إلى شئون صلاح الدين الخاصة، منها أن صلاح الدين عزم على الحج والزيارة بعد عقد صلح الرملة ١١٩٢/٥٨٨، فأشار عليه

---

(١) ابن الأثير جـ ١٢ ص ١٥ — السلوك جـ ١ قسم ١ ص ١٠١.
(٢) أبو شامة جـ ٢ ص ١٦٥ — ١٧٠.
(٣) أبو شامة جـ ٢ ص ١٩٣.

القاضى الفاضل بتأجيل ذلك إلى سنة أخرى ، لأسباب عرضها عليه[1]، مؤيدا إقناعه بفتوى دينية نصها « إن الإنقطاع لكشف مظالم الخلق، أهم من كل مايتقرب به إلى الله »[2]

هذه صفحات مطويه من نشاط القاضى الفاضل ومواقفه الخالدة، تكشف عن صلته الوطيدة بصلاح الدين، ومقامه الكبير عنده ، وأثره البالغ فى توجيه سياسة الجهاد ضد الصليبين ، فهو « كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، وهو ضابط الملك بآرائه ورابط السلك بلألائه » على قول العماد[3] . فلا غرابة أن يتحدث صلاح الدين عن فضل ذلك الرجل الكبير، وأثره فى حركة الجهاد ، بعبارة نصها « لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل »[4]، وشهادة صلاح الدين بفضل القاضى الفاضل على حركة الجهاد الأسلامية شهادة لها دلالتها التاريخية ، إذ تؤكد التعاون الوثيق بين الشاب والشيخ وبين الماده والروح، وبين السيف والقلم، وبين العسكرية والدبلوماسيه ، وأنه لاغنى لأحد الطرفين عن الطرف الآخر .

---

(١) راجع تلك الأسباب فى « التاريخ الحربى المصرى على عهد صلاح » المؤلف فى نهاية الفصل الأخير .

(٢) أبو شامة حـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ١٥٦ — العماد : خريدة القصر نشر أحمد أمين ص ٣٦ حـ ١ .

(٤) أبو المحاسن حـ ٦ ص ١٥٧ .

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين، تنزّه القاضى الفاضل عن ملابسة الدولة ، ومخالطة أهلها ، واعتزل بداره فى القاهرة ، لما رأى من اختلال الأحوال وتفرق الكلمة، غير أنها جذبته إليها جذبا ، حين اشتد الخلاف بين خلفاء صلاح الدين، ومجىء العادل والأفضل من دمشق لمحاربة العزيز بالقاهرة ١١٦٤/٥٩١؛ واستدعى القاضى الفاضل ليعالج الموقف بما عرف عنه من سداد الرأى، فأدلى بدلوه، وما زال حتى تقرر الأمر ووقع الصلح بعودة الأفضل إلى الشام، وببقاء العزيز بالقاهرة، وبصحبته عمه العادل. ثم تجدد الخلاف ٥٩٥/١١٩٨ بين أمراء الدولة بعد وفاة العزيز صاحب مصر وتقدم نفر إلى القاضى الفاضل ليأخذوا رأيه ، فامتنع من المشورة عليهم فتركوه [١] . وانتهى الأمر بانتصار الملك العادل على الأفضل ابن صلاح الدين فى بلبيس ودخوله القاهرة ٥٩٦/١١٩٩ وتوليه ملكها.

وعلم القاضى الفاضل بتلك النتيجة المؤسفة ، فحزن ودعا على نفسه بالموت ، لوحشة بينه وبين الملك العادل أبى بكر وخوفا من بطش ابن شكر ، الذى استوزره العادل وأجلسه فى دار السلطنة المصرية فى حجرة القاضى الفاضل [٢] . ومات القاضى الفاضل قبل دخول العادل القاهرة فجأة ، وذلك ليلة الأربعاء ١٧ ربيع الآخر ٥٩٦ (يناير سنة ١١٩٩) . وقيل إن العادل كان داخلا من باب النصر

(١) راجع التفاصيل فى السلوك حـ ١ قسم ١ ص ١٢٨ و ١٤٦ .

(٢) السلوك حـ ١ قسم ٢ ص ١٥٣ — النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ١٣٤ و ١٥١ و ١٥٧ .

وجنازة القاضى الفاضل خارجة من باب زويلة ؛ زاره الرحالة عبد اللطيف البغدادى قبل وفاته بأشهر ووصفه بقوله « دخلنا عليه ، فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب [1] » . ودفن القاضى فى تربته بسفح المقطم فى القرافة الصغرى ، وزار ابن خلكان قبره مرارا ، وقرأ تاريخ وفاته على الرخام المحيط بالقبر . كما قرأ على روحه الفاتحة وبعضا من آيات القرآن مترحما عليه .

أقتنى القاضى الفاضل الكتب من كل فن ، واجتلبها من كل جهة ، وله نساخ لا يفترون . ومجلدون لا يسأمون ، بلغ عدد كتبه قبل موته — بعشرين سنة — مائة وأربعة عشر ألف كتاب [2] . قيل أن صلاح الدين لما فتح القصر الفاطمى سنة ١١٧١ م . وجد بمكتبته مائة وعشرين ألف مخطوط أعطاها القاضى [3] الفاضل ، كما أعطاه سنة ١١٨٣ م . ألف ألف وأربعين ألف مجلد وجدها بمدينة آمد ، حين تسلمها . فتخير منها القاضى حمل سبعين جملا [4] . وساعد القاضى على اقتناء الكتب ما أمتلكه من ضياع ورباع واقطاع ، دخلها خمسون ألف دينار

(١) السلوك ج ١ قسم ١ ص ١٥٣ .
(٢) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . نشر مكتبة القدس ج ٤ ص ٣٢٥ .
(٣) Lane—Poole : A Hist of Egypt p. 198
(٤) العماد ص ٥٦ — جيش مصر للمؤلف ص ٩٢ Lane. Poole Saladin p. 179

فضلا عن ضيعة من السلطان تسمى ترنجة ، تدرُّ وحدها اثنى عشر ألف دينار ، وفضلا عن التجارات الواسعة من الهند والمغرب[١] . وقيل أن العزيز احتاج إلى المال لمحاربة عمه العادل وأخيه الأفضل ، فاجتمع بالقاضى الفاضل ليطلب منه قرضا قائلا له : « قد علمت إن الأمور قد ضاقت على ، وقلت الأموال عندى ، وليس لى إلا حسن ظنك ، وإصلاح الأمر ، إما بمالك أو برأيك أو بنفسك » فرد عليه القاضى بقوله « جميع ما أنا فيه من نعمتكم ، ونحن نقدم اولا الراى والحيلة ، ومتى احتيج إلى المال فهو فى يديك[٢] . » والنص يدل على تحدث المؤرخ بنعمة ربه ، واعترافه بفضل البيت الأيوبى عليه ، وعرفانه بالجميل ، فضلا عن اتصافه بالجود والكرم .

طال جلوسه وابن شداد يوما عنـــد صلاح الدين اثناء مرضه حتى جاء ميعاد الغـــذاء ، فتقدم إليهما صلاح الدين بالحضور على الطعام فى خدمة ولده الملك الأفضل . فاعتذر القاضى الفاضل ، وعلق ابن شداد على هذا الاعتذار بقوله « ولم يكن القاضى عادته ذلك ، فانصرف ودخلت أنا الأيوان »[٣] ، وهو تعليق يرفع القاضى الفاضل إلى مرتبة بعض رؤساء الحكومات اليوم ، الذين لا يأكلون على موائد ملوكهم ورؤساء دولهم إلا فى المناسبات القليلة النادرة ، كما يدل على معرفته قدر نفسه وترفعه واعتزازه بها .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب حـ ٤ ص ٣٢٥ .
(٢) السلوك : حـ ١ قسم ١ ص ١٢٨ .
(٣) ابن شداد ص ١٤٦ .

وكذلما كان قول المؤرخين فى القاضى الفاضل، فهو عمدة المعاصرين منهم للسلطان صلاح الدين بلا منازع، لا لكونه المصرى الوحيد بينهم، بل لأنه حجة تاريخيه معاصرة لثلاثة عهود من الحكم المصرى، ذات ألوان وأساليب متباينة ؛ فالمعروف تاريخيا أنه شهد نهاية دولة الفواطم الشيعية ، وماحل بالبلاد من الفوضى السياسية والدينية، ومن النهب والتخريب على يد جندها المرتزقة، وشهد كذلك قيام دولة بنى أيوب السنية ،وما صنعه صلاح الدين فى مصر من قوة عسكرية ناهضة، وحكم إدارى حازم وقيام الوحدة المصرية السورية ، وشهد أخيراً تفكك الإمبراطورية المصرية الصلاحية ، وتقسيمها بين أخلاف صلاح الدين وتنازعهم وأمرائهم على القيادة والحكم.

دون القاضى مشاهداته كلها فى تاريخه المعروف « بالمجريات » Almadjarayat على قول كمال الدين[1] أو « المتجددات » على قول المقريزى[2] أو « الرسائل » على قول أبى المحاسن[3]، أو « المياومات» على قول المقريزى أيضاً[4] . وهى عبارة عن جريدة يومية رسمية لديوان الإنشاء ،تشبهها الوقائع المصرية فى الوقت الحاضر، ويقول ابن خلكان فى هذا المعنى « ورأيت فى تاريخ القاضى الفاضل الذى رتبه على مر الأيام، وهو بخطه يذكر فيه ما يتجدد فى كل يوم . سجل فيها القاضى الفاضل

(١) Cahen : op. cit. p. 53

(٢) الخطط : حـ ١ ص ١٣٩ — ١٤٠ و حـ ٢ ، ص ٢٥١ .

(٣) النجوم الزاهرة : حـ ٦ ص ١٥٦ .

(٤) ابن واصل : نشر الشيال ص ٥ .

المكاتبات الصادرة من الديوان ، أو المتبادلة بينه وبين السلطان صلاح الدين فى كل يوم[١] . . »

وبين فيها كيفية معالجة سياسة الدولة المصرية فى الداخل والخارج[٢] . وتقويم الجبهة الاسلامية بين صلاح الدين وأمراء المسلمين وإزالة الخلافات العائلية بين صلاح الدين وأهله ، فضلا عن تصوير أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية فى تلك الرسائل ، التى وصفها ابن خلكان بقوله « إن مسودات رسائل القاضى الفاضل فى المجلدات ، والتعليقات فى الأوراق ، إذا جمعت ماتقصر عن مائة مجلد[٣] ، وتحتفظ المكتبة الملكية فى مدينة ميونخ ببعض هذه الرسائل التى خطها القاضى الفاضل بيده تحت رقم 402 [٤] ، كما يوجد منها مقتطفات بجامعة ليدن برقم God. or. 994 A ؛ وبمكتبة جامعة كمبردج برقم QQ. 3232 ؛ وبالمتحف البريطانى بلندن برقم Add. 7312—Rich [٥] ولا تزال آثار القاضى الفاضل التاريخية والأدبية حتى اليوم – للأسف

(١) راجع مقدمة أبى شامة حـ ١ ص ٢٢ للدكتور حلمى .

(٢) راجع على سبيل المثال الرسالة التى أنشأها عن لسان صلاح الدين إلى الخليفة المستضىء بالله العباسى ، فهى من أروع ما كتب فى السياسة والأدب . القلقشندى حـ ١٣ من ٨١ — ٩٠ . وكذا التاريخ الحربى للمؤلف ص ٥٤ .

(٣) النجوم الزاهرة : حـ ٦ ص ١٥٦ .

(٤) مقدمة مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين R. H. O. Tome I lere.

(٥) حاشية ٢ من مقدمة أبى شامه للدكتور حلمى . ص ٢٢ .

الشديد ـ مفرقة فى كتب من جاء بعده من المؤرخين وبخاصة أبو شامة ـ كاملة أو مجزوءة ؛ تعبر عن طول باع صاحبها فى صناعة الكتابة ، وعن سلامة تفكيره ، وعن إخلاص صادق فى نصحه ، وعن فهم سليم لقضية الجهاد ، وعن ثقة متبادلة بينه وبين صلاح الدين ، وعن إدراك وتجميع للخواطر والمعانى والأحاسيس التى تجيش فى صدر صلاح الدين نحو خلفاء بغداد وأمراء المسلمين [١] .

* * *

وبعد ، فيتفق أولئك المؤرخون المسلمون الخمسة المعاصرين لصلاح الدين فى تفقههم فى الدين ، وإقامة ثقافتهم العامة على أسس دينية غالبة ، وهم على مذهب ملوكهم السنى باستثناء ابن أبى طى الشيعى . كما يتفق جميعهم كذلك فى إلمامهم وفهمهم لفكرة توحيد المسلمين للجهاد ضد الصليبيين ، فخدمها كل منهم عن إخلاص فى دراساته وأسفاره . وكانت الرحلة والنقلة فى ربوع الشام بنوع خاص إحدى وسائلهم فى تحقيقها . وتولى أولئك المؤرخون الخمسة ـ فيما عدا ابن أبى طى ـ وظائف إدارية وقضائية وتعليمية فى حكومات السلاطين والأمراء . فاصطبغت نشأتهم بالصبغة الديوانية أكثر منها بالصبغة الشعبية .

وامتاز ثلاثة منهم وهم ـ العماد وابن شداد والقاضى الفاضل ـ باتصالهم الشخصى وصلتهم الوطيدة بصلاح الدين ، يؤيده إشارة ابن

---

(١) Gibb : The Achiev. p. 47

شداد إلى اشتركهم الثلاثة مع السلطان وكبار أهله وأصحابه فى وقعة تل العياضية ، يوم ٣ ربيع الأول سنة ٨٧، (إبريل سنة ١١٩١) ونص عبارته « وكان من المعممين الفاضل والديوان (أى العماد) وكنت فى الصحبة فى ذلك اليوم »[١] غير أن ابن شداد يختلف عن زميليه الفاضل والعماد ، فى الطريقة التى اتصل بها بصلاح الدين . إذ مهدت له شخصيته ـ بطريق مباشر ـ سبيل التقدم لدى صلاح الدين ، على حين اتصل به الآخران عن طريق الوسطاء[٢] . وزار أولئك الثلاثة مصر ودوّن اثنان منهم، هما الفاضل والعماد ملاحظاتهما عن نيل مصر وأهلها ومعالمها فى مؤلفاتهما .

---

(١) ابن شداد : ص ١٤٢ .

(٢) مقدمة أبى شامه للدكتور حلمى ص ٢٤ .

الفصل الثانى

المؤرخون اللاتينيون

---

١ — وليم الصورى

(حوالى ١١٣٠ — ١١٨٧ م)

هو اول ثلاثة من المؤرخين اللاتينيين المعاصرين للحروب الصليبية ؛ أما الثانى فهو الفارس أرنول ، والثالث فهو الشاعر أمبروز. عاش وليم فى القرن الثانى عشر الميلادى ؛ والراجح أنه ولد فى بيت المقدس قبيل سنة ١١٣٠ م . من أبوين ينتسبان إلى أسرة فرنسية ، اشترك رجالها فى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى . نشأ وليم فى الشرق، وتعلم العربية واليونانية ؛ وأغلب الظن أن أهله بعثوا به إلى باريس كى يواصل دراساته ، فمكث بها مدة ليست بالقصيرة ، ثم عاد إلى فلسطين حوالى سنة ١١٦٢ م[1] واتصل بالملك عمورى الأول ،

---

(١) Von Sybel : History and Literature of the crusades - ed Lady Duff Gordon. p. 197 — Cahen, claude : La Syrie du Nord à l'Epoque des croisades, Paris 1940 — Paulin Paris : Guillaume de Tyr et Ses Continuateurs, Paris 1879.

راجع مقدمة

ولم يلبث أن صار مربياً ورائداً لأولاده ولا سيما ولى عهده الأمير بلدوين .

ثم تعين وليم سنة ١١٦٧ م كبيراً لشمامسة مدينة صور ، وعمره وقتذاك حوالى العشرين ، واشتهر وليم فى صور بالحجة البالغة ، والقدرة على الإقناع والاشتغال بالقضايا السياسية ، ولذلك أسفره الملك عمورى أكثر من مرة فى أمور سياسية خطيرة ، ففى سنة ١١٦٨ م ذهب وليم إلى القسطنطينية لمفاوضة الامبراطور مانويل كومنين فى شروط التحالف الهجومى المزدوج . ونجح فى الحصول على اتفاق يوجه الجهود الصليبية البيزنطية نحو غزو وادى النيل ، واقتلاع الخلافة الفاطمية منه ؛ وتقسيم البلاد المصرية بين الامبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس اللاتينية . غير أن وليم وصل متأخراً فى خريف سنة ١١٦٨ إلى بيت المقدس ، حيث علم بمغادرة الملك عمورى فى حملته الثالثة ضد مصر ، تحت إلحاح شديد من بارونات مملكته ، ودون انتظار لوصول المساعدة البيزنطية التى تم الاتفاق عليها بين سفارة وليم الصورى ورجال البلاط البيزنطى [١] .

وفى عام ١١٦٩ م . سافر وليم إلى روما لأمور شخصية ، وتصادف عند عودته إلى الشرق أن توفى رالف أسقف بيت لحم سنة ١١٧٠ م ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades V. II, p. p. 379—389 Cambridge 1953.

وهو الذى وَزَر الملكين بلدوين الثالث وعمورى الأول، فتقلد وليم وظيفته الدينية ، وأضحى مستشاراً المملكة حتى سنة ١١٧٤ م . ثم اعتلى بلدوين الرابع عرش مملكة بيت المقدس فى أغسطس من تلك السنة . فاختار أستاذه ومربيه وليم وزيراً له ، وعينه فى مايو من السنة التالية كبيراً لأساقفة صور[١] . ومن ثم غدا وليم من ألمع وأبرز الشخصيات فى الأوساط الصليبية الشرقية ، وذاعت شهرته بين جميع الطبقات فى طول المملكة وعرضها ، وكان أحد البطارقة الستة الذين مثلوا الكنيسه اللاتينية الصليبية فى مجمع اللاتيران (أى المجمع البابوى) فى روما عام ١١٧٦ م . وعرج وليم أثناء عودته على القسطنطينية ، حيث قضى بضعة أشهر فى بلاط الامبراطور البيزنطى مانويل[٢] . ومن المحتمل أنه عمل فى أثناء تلك المدة على إزالة أسباب البغضاء بين الإمبراطور البيزنطى والدول الصليبية .

ومن ثم صار وليم شخصية ساطعة بارزة فى الدوائر السياسية والدينية، فلما أحس الصليبيون مثلا بضغط صلاح الدين عليهم منذ أوائل عام ١١٨١ م أى بعد استيلائه على حصن بيت الأحزان ، ودخول الأسطول المصرى ميناء عكا واستيلائه على عدة مراكب ، أسفروا وليم إلى روما فى ابريل ١١٨١م لأنهاض البابويه والحكومات الأوربية

---

(١) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 313 — Gra. Ency. Art. W. de Tyre V. 19, p. 582.

(٢) Ency. Brit. V. 10, p. 667. Art. W. of Tyre.

لنجدتهم[١]. على أن سفارته هذه لم تأت بنتيجة إلا بعد أن انتصر صلاح الدين فى حطين، وقضى على زهرة الجيوش الصليبية. واستولى على بيت المقدس نفسها عام ١١٨٧ م. فضلا عن كثير من المدن الأخرى. ولذا عبأ وليم نشاطه الدينى والسياسى فى إثارة الشعور المسيحى وعاد إلى أوربا، حيث دعا ملوك أوربا إلى اجتماع انعقد فى أوائل سنة ١١٨٨م فى بلدة جيزور قرب مدينة روان بفرنسا الحالية. وهى إحدى معاقل هنرى الثانى ملك انجلترا فى أرض فرنسا، وشهد هذا الاجتماع هنرى الثانى وفيليب الثانى ملك فرنسا؛ واقتنع الملكان بضرورة إيقاف الحرب الأهلية المستعرة بينهما فى سبيل القيام بحملة صليبية، ومات وليم الصورى قبل أن يرى قيام تلك الحملة التى عرفت بالثالثة[٢].

على أن بعض المؤرخين ينسب الدور الذى قام به وليم فى إنهاض ملكى انجلترا وفرنسا للحروب الصليبية إلى هرقل بطريق بيت المقدس، إذ المعروف أن هذا البطريق هاجر إلى روما بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس، وأن البابا كليمنت الثالث أسفره على الفور إلى حضرة ملكى انجلترا وفرنسا فى بلدة جيزور، حيث لقى وليم، وركع هرقل أمام الملكين استدراراً لأريحيتهما لإنقاذ بيت المقدس[٣]. وكيفما كان اختلاف

---

(١) Grousset, R. : Histoire des Croisades. Part II, p. 747 Paris 1935.

(٢) Campbell, G. A. ; The crusades. p. 271.

(٣) Cox, G. W. ; The Crusades. p. 113 London 1889.

المؤرخين حول هذه النقطة فما زال تاريخ وفاة وليم الصورى ، والمكان الذى وافته فيه المنيه ، ووقوع وفاته بعد لقائه هرقل أمراً غامضاً ، وأغلب الظن أنه توفى قبل ١١٨٧ م وبمدينة روما(١) قاعدة البابويه ومشروعاتها الصليبيه .

وتخللت مراحل نشاط وليم الصورى فى ميادين الوظائف الدينية والسياسية نشاط فى كتابة التاريخ ، وأعدته شخصيته ومواهبه وثقافته والمناصب الدينية والسياسية التى تولاها ، والمصادر التى استقامت له بهذا العمل ، كأحسن ما يقوم به المرخ المدقق ، وألف وليم كتابين : أحدهما بناء على رغبة صديقه الملك عمورى الذى أمره بكتابة تاريخ الشرق بوجه عام ، والعرب بوجه خاص ، منذ ظهور الإسلام إلى زمنه ، فتناول فى هذا الكتاب الحديث عن محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمراء الشرق أجمعين ، مستنداً على المصادر العربية واليونانية ، ولا سيما تاريخ سعيد بن البطريق(٢). ومن المؤسف حقاً أن يضيع هذا المخطوط الكبير ،

---

(١) Runciman op. cit. V. II, p. 582.

(٢) هوايو تيخوس المشهور عند العرب بسعيد البطريق . ولد بالقاهرة ٨ سبتمبر سنة ٨٧٧ م . وشغل وظيفة البطرياركية الملكانية بالأسكندرية من ٨ فبراير سنة ٩٣٣ إلى ١١ مايو ٩٤٠ م . واشتغل بالطب أولا وكتب فيه ، وفى تاريخ المسيحية ، وعنوان حولياته فى المكتبة الغربية « Le Rang de Perles » ، أما عنوانها فى المكتبة العربية فهو « كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق تأليف البطريرك افتيشيوس الملكى بسعيد بن البطريق » كتبه إلى أخيه عيسى فى معرفة التواريخ الكلية من آدم إلى سنى الهجرة الاسلامية . راجعه تحت رقم ٣١٢٤٣ تاريخ بالمكتبة العامة لجامعة القاهرة .

وألا يبق منه سوى ما نقله منه مؤرخو القرن الثالث عشر الميلادى[1]
أما كتابه الأهم ، فهو حوليات كبيرة دسمه للحروب الصليبية منذ قيامها
١٠٩٥ إلى عام ١١٨٤ م . واسم هذا الكتاب « Historia rerum in partibus transmarinis gestarum » وكتب وليم هذا الكتاب على
طريقة الحوليات ، وهى الطريقة الشائعة فى العصر الوسيط بين مؤرخى
الشرق والغرب سواء ، ويقع مخطوطه فى ثلاثة وعشرين جزءاً آخرها
ناقص . وبدأ وليم فى تدوين هذا التأليف عام ١١٦٩/١١٧٠ م ، وانتهى
عام ١١٧٣م من كتابه الثلاثة عشر كتابا الأولى، ثم حمل كل نتاجه معه إلى
روما ويبدو أنه فرغ ١١٨٢م تقريبا من جمع مواد البقية الباقية من حولياته
وشرع فى صياغتها وانجازها عام ١١٨٤ م فى اثنين وعشرين جزءاً .
وعقد النية على اكمال أحداث عام ١١٨٤م . فى الجزء الثالث والعشرين
إلا أن المنية عاجلته قبل أن يحقق عزمه .

وتوجد بالمكتبة الوطنية بباريس أربع نسخ خطية من كتاب وليم
الصورى تحت الأرقام ٢٩٧٠ ، ٨٣١٥ ، ٨٤٠٤ ، ٨٣١٤ . يرجع ثلاثة
منها إلى القرن الثالث عشر ، على حين ترجع الرابعة (٨٣١٤) إلى القرن
الخامس عشر . ونشرت هذه الحوليات لأول مرة فى الجزء الأول من
مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية[2] من قسمين . نشر أولهما عام ١٨٤٤م

---

(١) Runciman ; op. cit. p. 476.

(٢) Rec. Hist. Crois. Occ. Vol. I, pts. 1 and II. ثم راجع مقدمة الجزء الثانى من هذه المجموعة من ١١٨٤م

وتناول الأحداث الواقعة ما بين ١٠٩٥ و ١١٤٤ م ، أما ثانيهما فنشر عام ١٨٧٩ . مضافا إليه بعض النصوص اللاتينية للقرن الثالث عشر. ثم نشر بولين باريز الحوليات كلها فى جزءين فى يناير ١٨٧٩ وصدرها بمقدمه إيضاحية [1] . وعنوان كتابه «guillaume de Tyr et ses continuateurs.Paris 1879»

اعتمد وليم فى الخمسة عشر كتابا الأولى الحاوية أحداث الحملة الصليبية المعروفة بالأولى، على مصادر أصلية لمؤرخين معاصرين للحوادث ، منها . حوليات القس فولشر الذى حضر مجمع كليرمنت ١٠٩٥ م وخرج مع أمراء الحملة الأولى، وشهد أكثر معاركها وانتهى به المطاف أخيرا فى بيت المقدس. بدأ فولشر تاريخه من ١١٠١ وانتهى به فى ١١٢٧ م. وهو من أكثر المؤرخين اللاتينيين المعاصرين احتراما وأغزرهم ثقافة؛ ولذلك أخذ عنه كثير من المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية، وهو مرجع رئيسى لوليم فى المدة ما بين ١١٠٠ و ١١٢٧ م [2] . أما صاحب المصدر المعاصر الثانى الذى اعتمد عليه وليم فهو ألبرت إكس (آخن) ، فلم يعرف عنه شىء سوى أنه أحد مؤرخى الحملة الأولى ، وأنه عاش فى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر ، وأنه لم يزر الشرق إطلاقاً ، بل فى المدة بين ١١٢١ و ١١٥٨ سجل تاريخه نقلا عن التجار والجنود والحجاج العائدين من الشرق ،

(١) وله عنوان آخر وهو Histoire Générale des croisades par les auteurs.

(٢) Gra. Ency. Art. Foucher — Cahen ; op. cit. p. 10.

صاغه فى قالب شعرى قصصى متقن شيق ، ولم يذكر مصادره(١).
وثالث المصادر المعاصرة للحملة الأولى هو القس ريموند أجيلرز ، الذى بدأ تدوين حولياته التى عنوانها تاريخ الفرنجة Historia francorum أثناء حصار أنطاكية . وانتهى منه فى ١٠٩٩م وهو مخبر ناقد ، أخلص فى عمله . وأما رابعهم فهو القس توديبود ، ناشر يوميات أحد جنود الأمير بيهومند ، المسماه قصة الفرنجة gesta francorum ؛ والمنتهية بمعركة عسقلان ١٠٩٩ م مع إضافات شخصية لتوديبود(٢) . استوعب وليم المادة التاريخية عند أولئك المعاصرين ، وأضاف إليها قصصا شخصية عن الملك ، وبعض التنظيمات المدنية والحربية الخاصة بالشرق وكنائسه وخصائصه الجغرافية .

واستق وليم معلوماته التاريخية عن القسم الثانى من حولياته ، ولا سيما منذ ١١٤٤م من مشاهداته الشخصية والروايات التى قصها عليه شهود العيان ، ومن السجلات والوثائق الرسمية فى الكنائس والأديره وقصور الأمراء والملوك . وفى منتصف القرن الثانى عشر ، ولا سيما من ١١٦٢ م يقف وليم نفسه على مسرح الأحداث موقف المعاصر ، المشاهد ، ويسهم بنصيب واضح فى بعض هذه الأحداث ، وبذا تسمو

(١) Gra. Ency. Art. Abbert d'Aix.

(٢) Runciman ; op. cit. V. I, p.p. 329—331 — Cahen. op. cit. pp. 7—17.

حولياته إلى درجة عالية من التقييم التاريخى ، مع عدم الخلو من ضيق الأفق والميل والهوى ، وغيرها من نقائص الكتابة المعاصرة [١] .

ومما يستوجب الإلتفات ، أن وليم إهتم بشئون مصر السياسية والعسكرية اهتماماً بالغاً ، فأفرد لها أجزاءاً وفصولا كاملة من مخطوطه ، وصف فيها وصفاً مسهباً موقع بابليون المصرية وعصرها ، وأصل الخلافة الفاطمية ، وعدد مصبات نهر النيل واستمرار زيادة أرض الدلتا ، وتجارة الهند الواصلة إلى القلزم (السويس) [٢] . والتسابق السياسى والعسكرى بين عمورى الأول ملك بيت المقدس ونور الدين محمود سلطان دمشق . واستخلص وليم معلوماته عن السياسة المصرية الفاطمية إزاء هذا التسابق ، من سفيرين من رجال مملكة بيت المقدس العارفين باللغة العربية، وهما هيو حاكم قيصرية أحد البارونات البارزين فى المملكة وجود فرى رئيس هيئة الفرسان الداوية . أرسلهما الملك عمورى صحبة الوزير شاور المصرى إلى القاهرة ، لعقد معاهدة رسمية مشروطة مع الخليفة العاضد نفسه، مقابل قيام عمورى بصد حملة شيركوه السورية الثانية سنة ١١٦٧ عن مصر . وصادق الخليفة الطفل على المعاهدة. أمدت السفاره وليم بالتفاصيل الدقيقة الخاصة بمصر أوسرارها الداخلية، ومن المحتمل أن تكون وافته بأنباء بعض معاهدات

(١) Cahen ; op. cit. p. 17.

(٢) راجع الفصل الخامس عشر من الكتاب التاسع عشر فى Rec. H. C. Occ. V. I, p, 890.

مع صلاح الدين . وذكر كذلك التفاصيل الخاصة بقوة الجيش الصليبى الذى غزا به عمورى مصر ، وأصل الشقاق الحادث بين عمورى والفاطميين. ولما فشلت حملة عمورى الأخيرة على مصر لم يستطع وليم إخفاء سخطه ، وحاول عقب عودته من احدى رحلاته الى روما ، أن يستقصى أسباب الفشل من البارونات ومن عمورى نفسه [1] .

وفى هذا دليل إضافى الى ماهو معروف من تمنيات زعماء الصليبيين منذ الحملة الصليبية المعروفة بالأولى أن تمتد أظفارهم الى مصر . والواقع أن وليم الصورى دعا الى مشروع حربى خطير ، وهو أن يزحف جيشان على مصر من ناحيتين ، أحدهما صليبى بيزنطى من ناحية الشرق ، وثانيهما صليبى صقلى من ناحية الغرب [2] . ولئن قضى صلاح الدين على أولهما الذى امتد زحفه الى دمياط سنة ١١٦٩ ، وعلى ثانيهما الذى وصل ثغر الإسكندرية فى ربيع سنة ١١٧٤ ، فان فكرة غزو مصر التى اصطنعها وليم الصورى ، ظلت تراود الصليبيين جيلا بعد جيل [3] .

---

(١) الفصل ١٧ و٢٨ من الكتاب ١٩ من Rec H. C. Occ. V.I, pt. 2 pp. 908—932 Von Sybel ; op. cit. p. 202.

(٢) الفصل ٤ و ٥ من الكتاب ٢٠ من Ibid. p. 216 — Rec. H. C. Occ. V. I, pt. 2 p. 948.

(٣) حاول رتشارد قلب الأسد تحقيق هذا المشروع غير أن صلاح الدين أفسد محاولته — راجع رسالة الدكتوراه للمؤلف بعنوان « التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين » نشر مكتبة النهضة ١٩٥٨ .

ومما يستوجب الإلتفات كذلك فى تأليف وليم ، أنه صور عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وأسد الدين شيركوه ، وصلاح الدين تصويراً يدعو الى الإعجاب ، على حين نعى على زعماء الصليبيين تدهور صفاتهم الحربية والخلقية على قوله ، وعجزهم عن مقاومة نور الدين وصلاح الدين، لانتشار الرذيلة والخيانة والفرقة والمنافسة والغدر بين صفوفهم (١) .

ويتضح من تحليل كثير من صفحات كتاب وليم الصورى ، أنه لم يشأ أن يستأنس بالمصادر العربية أو اليونانية القديمة فى أى جزء من أجزاء كتابه ، لإعتقاده فيما يبدو ، أن الحقائق المستمدة من غير المصادر اللاتينية لا قيمة لها . ولعل السر فى ذلك أنه خشى أن تختلط روح روايته بروح أخرى مغايرة لها كل المغايرة ، مع العلم بأنه اعتمد على بعض المراجع العربية . واليونانية القديمة . وعلى أية حال يمثل كتابه تاريخاً متكاملا ، فيه وحده التفكير ، وفيه استقلال من ناحية المادة ومن ناحية الشكل ، رغم ما به من نقص فى التسلسل التاريخى (٢) .

ويبدو من أسلوب وليم السلس الذى كتب به تاريخه ، أنه مسيطر على اللغة التى كتب بها ، وهى لاتينية العصر الوسيط . التى تمخضت عنها اللغات الإيطالية والفرنسية والأسبانية ، واستطاع وليم بسيطرته

---

(١) راجع Von Sybel ; op. cit. pp. 214—215.

(٢) Ibid. op. cit. pp. 208—210.

اللغوية أن يجيد التعبير عن أفكاره ، وأن يكشف عن ملكته التاريخية لا كمسجل للحوادث ، وأدرك وليم كذلك أهمية الأحداث العظمى التى وقعت فى عصره ، كما أدرك تتابع العلة والمعلول فى التاريخ ، وأحس بأهمية الترتيب والوضوح فى وصف الصلات المعقدة القائمة بين الممالك المسيحية والعربية ، وهى صلات دائمة التغيير ، اشتركت فيها أقوام متغايرة ، فى الجنس العقيدة والثقافة والتقاليد ، وسجل صورا رائعة لأحوال تلك الممالك وتنظيماتها العسكرية والمدنية ، والأسباب الدافعة للحروب الصليبية ، وعوامل نجاحها فى البداية وفشلها فى النهاية[١] .

واتسم وليم فى كتابته بطبيعة هادئة ، لا تميل كثيراً إلى التعصب ، وبأفق عقلى واسع ساطع ، يؤثر الاعتدال فى التعبير عن أفكاره حيال خصومه الشخصيين أمثال البطريق هرقل . ويشعر بصعوبة ذكر الحقيقة دون الأساءة إلى الناس ، وهو فضلا عن كونه سياسى من الطراز الأول ، يفهم الأمور العامة ، ويحكم عليها بطريقة لا يتوصل إليها سوى القلة من معاصريه ، ويكره سيطرة العلمانيين على الكنيسة[٢] . ومهما قيل من تقدير المؤرخين لوليم الصورى ، فإن وفاته — قبل أن يصل فى تاريخه إلى نهاية الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة — كانت خسارة لا تعوض على قول لنبول . ولاسيما فيما يختص بتاريخ السلطان

---

(١) Von Sybel ; op. cit. p. 205.

(٢) Runciman : op. cit. V. II, p. 477. و Ibid. p. 216.

صلاح الدين الأيوبى[1] . لأن وليم لم يترك خلفاً يستطيع أن يصل إلى فحولته ومرتبته بين المؤرخين الصليبيين .

* * *

٢ — الفارس أرنول

(... — ...)

وأول أولئك الأخلاف الفارس أرنول سار على نهج وليم فى تسلسل حوادث مملكة بيت المقدس . وأفاض فيها ابتداء من ١١٨٤ ووصل بها حتى ١٢٢٧ م . وكان أرنول سلحدار Ecuyer الأمير باليان (ابن بارزان) على قول العماد[2] ، أمير إبلين وكونت يافا وعسقلان ورام[3] . وأحد البارونات اللامعين فى مملكة بيت المقدس بعد تنصيب جى دى لزيجنان ملكا عليها .

وكثيراً ما يخلط البعض بين أرنول الكاتب والمؤرخ خليفة وليم الصورى ، وبين فارس آخر اسمه أرنول دى جبليه ، وهو أحد أتباع باليان كذلك[4] . وأدى ذلك الخلط إلى اضطراب فى معرفة المؤلفات

(١) مقدمة لنبول فى كتابه Saladin .
(٢) العماد الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٤٠ مطبعة الموسوعات .
(٣) Gra. Ency Art. Assises de Jerusalem V. 4, p. 260.
(٤) Op. Cit. Art. Ernoul. V. 16, p. 201.

التاريخية المعتبرة تذييلا وامتدادا لتاريخ وليم الصورى ، فهناك — عدا مخطوطة أرنول الضائعة ـ مخطوط لاتينى لمؤلف غربى مجهول تاريخ تأليفه ١١٩٤ م ، واعتمد فيه مؤلفه على مخطوط آخر ضاع ، وهذا المخطوط شامل الأحداث التى وقعت من ١١٨٤ إلى الحملة الثالثة . وهناك كذلك تأليفان بالفرنسية القديمة فى منتصف القرن الثالث عشر ، وضع أحدهما مؤلف مجهول ثان ، وإن كان من المعروف أنه أحد رعايا ملك فرنسا وقتذاك ، وأنه تناول كتاب وليم الصورى وعلق عليه بالحذف والإضافة ، وهذا التأليف معروف باسم «تاريخ هرقل» .

أما المؤلف الثانى ، فوضعه صليبى شرقى هو برنارد ، أمين خزانة كوربى Corbe أو Corble وبدأه من ١١٢٩ م وهى السنة التى بدأ منها أرنول ، معتمدا على ما كتبه أسلافه من المؤرخين مع إضافات شخصية هنا وهناك . والراجح أن جميع هذه المخطوطات التى تناولت المدة من ١١٨٥ إلى ١٠٩٨ اعتمدت على مخطوطة أرنول ذاتها المفقودة ، لأنه من المقطوع به أن أول وصف للأحداث الواقعة من أول مايو ١١٨٧ م مصدرها الأصلى أرنول [١] .

نشرت حوليات أرنول فى طبعات أربع ، آخرها طبعة ماس لاترى Mas Latrie سنة ١٨٧١ م ، وهو صاحب الفضل فى الإشارة إلى اسم

---

(١) Cahen : op. cit. p. 18 — Runciman op. cit. V. II, p. 477 — Paulin Paris, op. cit. مقدمة

أرنول مع انفراده بالضبط والتحقيق [1]. شهد أرنول السنوات الدقيقة الحرجة من حياة مملكة بيت القدس زمن صلاح الدين، وما تعرضت له من أحداث داخلية وخارجية خطيرة وقتذاك، اذ انقسم الصليبيون إلى حزبين، يتزعم أحدهما الأمير ريموند صاحب طرابلس، ويرى ضرورة التفاهم مع المسلمين على قاعدة سلمية راضية للطرفين، ويتزعم الآخر الملك جى وأنصاره ومنهم أرناط، ويرى ضرورة الحرب المتصلة مع المسلمين؛ ويتفرع فى جوف كل من المعسكرين أحزاب وعصبيات أخرى متضاربة متنازعة، منها جماعة الإبلين المنسوبة إلى الأمير باليان دى إبلين الذى سبقت الإشارة إليه، وينتمى ارنول إلى تلك الجماعة، وبفضل اتصاله بها استطاع الوقوف على تفاصيل السياسة العليا لمملكة بيت المقدس. وهى فرصة لم تتوفر لغيره من المعاصرين، إذ المعروف أن باليان قام بدور ناشط فى الدفاع عن المملكة. وشهد معركة حطين [2]، واشترك فيها خائبا، ثم لاذ بالفرار إلى بيت المقدس مع بطريقها هرقل، لتنظيم وسائل الدفاع عن المدينة المقدسة. وأشار ابن الأثير إلى هذا الخبر بقوله: « وبالقدس أيضا باليان ابن بارزان، صاحب الرملة، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك » [3].

---

(١) مقدمة Paulin Paris.

(٢) راجع وصف أرنول لواقعة حطين من
Rec. H. C. Occ. V. I, pt. II, pp. 62—67.

(٣) الكامل فى التاريخ، حـ ١١ ص ٢٢٣ طبعة ١٢٩٠ هـ.

وفى أثناء حصار صلاح الدين لمملكة بيت المقدس، أنفذ المدافعون عنها باليان لمفاوضة السلطان ، وتم الاتفاق بينهما على تسليم المدينة واعتبار أهلها أسرى حرب ، يحق عليهم الفداء مقابل السماح لهم ، فخرج الأمير باليان ومعه سبعة آلاف وقيل ثمانية عشر ألف رجل[١]، بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار. ووهب صلاح الدين كلا من باليان والبطريق ألف رقيق أطلقوا فى الحال . ثم رحل باليان ومعه تابعه الفارس أرنول إلى قلعة القيمون Lacaimon [٢] القريبة من عكا ، حيث عكف أرنول على تأليف حولياته. وهكذا أضحى أرنول حجة بالغة ، وشاهد عيان لهذا كله ، وسجل فى حذر واهتمام الأحداث الجارية أمامه ، وصور فيها وجهة النظر المسيحية ، كما صور مؤرخو العرب وجهة نظرهم الإسلامية فيها كذلك ، وشرح أرنول العلاقة الروحية بين فقد خشبة الصليب فى أرض حطين ، وبين استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس ، ولم يفته الحديث عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه ، مع زوجات وبنات الأسرى والمفقودين من الصليبيين[٣] .

* * *

(١) شرحه ح ١٢ ص ٢٢٤ .

(٢) قيمون : الفتح ثم السكون وآخره نون — حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين — ياقوت . معجم البلدان .

(٣) راجع وصف أرنول لواقعة حطين من :

Rec. H. C. Occ. V. I, pt. II, p. 98.

٣ — الشاعر أمبروز

(... — ...)

وأخيرا يأتى دور أمبروز ، ثالث المؤرخين الصليبيين المعاصرين ، وهو شاعر نورمانى الأصل ، تابع للبلاط الملكى الإنجليزى ومغنيه ، رافق الملك ريتشارد قلب الأسد فى حملته إلى الشرق ، ودون أحداث تلك الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة (١١٩٠ - ١١٩٣) فى شعر منظوم مقفى ، من ثمان مقاطع باللغة الفرنسية القديمة (١) . وعنوانه L'estoire de La Guerre Sainte. ودون أمبروز فى منظومته هذه مشاهداته الشخصية للمعسكرين الإسلامى والمسيحى فى أرض عكا ويافا وأرجع أسباب فشل المحاولات الصليبية لاسترجاع بيت المقدس إلى وسائل الدفاع العديدة ، التى أعدها صلاح الدين معنويا وماديا ، وصور امبروز فى أشعاره حياة الزعماء الصليبيين ، فى الأرض المقدسة من جد وهزل وفسق وفجور ، وانتقد أعمالهم وسلوكهم انتقادا لاذعا فى أغنيات هجائية ، ذاعت وانتشرت بين المحاربين فى ساحات القتال . تناول فيها الدينيين والعلمانيين سواء (٢) .

ولم ينس امبروز فى تاريخه الشعرى السلطان صلاح الدين ، فأشار إلى استخدامه الثعابين والأفاعى إلى جانب السهام والنبال والنار الأغريقية

---

(١) Hatem, A. Les poemes epiques des croisades p. 127 Paris 1932 — Cahen. op. cit. p. 18.

(٢) Ibid. pp. 294, 302.

لايذاء الصليبيين(١) ، كما أشار إلى حياة صلاح الدين الشخصية ،وزعم أن زواجه من الخاتون عصمة الدين أم السلطان إسماعيل وأرملة نور الدين ، يرجع إلى حبه إياها منذ شبابه فى البلاط النورى ، وأنها هى التى مهدت له سبيل الحصول على السلطنة ، ، بأنها سهلت له وضع السم لنور الدين فى الطعام(٢) . وهو زعم باطل لا يقومه سند تاريخى ، وإن كان من المعروف أن صلاح الدين تزوج منها ، وان هذا الزواج سهل له تنازل الطفل الملك إسماعيل بن نور الدين عن حقوقه فى السلطنه(٣). وتوجد بمكتبة الفاتيكان نسخة خطية وحيدة من كتاب أمبروز، ويرجع فضل الكشف عن قيمته التاريخية إلى جاستون باريز ، الذى قام على تحقيقه ونشره عام ١٨٩٧ م ثم ترجمه وعلق عليه بالانجليزية لامونت وهيوبرت(٤) .

* * *

(١) Ibid. p. 382.

(٢) Gaston Paris ; La Legende de Saladin ; Journal des Savants p. 285 Paris, 1893.

(٣) راجع رسالة الدكتوراه المؤلف « التاريخ الحربى المصرى على عهد صلاح الدين » بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة . ص ٨٤

(٤) Hatem ; op. cit p. 479 — Ency. Brit. V. I, p. 743 ed. 1950. Art : Ambrose.

٤ — موازنه بين المؤرخين المسلمين واللاتينيين

وبعد ، فمن الحق أن تعقد مقارنة هنا بين المؤرخين الشرقيين والغربيين المعاصرين للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، مع ملاحظة عدم إشارة المؤرخين المسلمين إلى أحد من أولئك المؤرخين اللاتينيين ، وعدم إشارة المؤرخين اللاتينيين إلى المؤرخين المسلمين. وكان المتوقع أن تذكر المصادر العربية الإسلامية أسم المؤرخ الصليبى الشهير وليم الصورى بخاصة ، لكونه صاحب فكرة غزو مصر ، وتحويل المشاريع الصليبيه الغربية عن هدفها الحقيقى ، وهو الأراضى المقدسه إلى وادى النيل . وأخذ البابوات وقادة الحملات الصليبية فيما بعد تلك الفكره عن وليم هذا ، وجعلو مصر حجر الزاويه فى إرساء القواعد الصليبيه بالشرق . وكل ما أشارت إليه المصادر العربية فى هذا الصدد ، هو أن الصليبيين الشرقيين حين أيقنوا الفناء، بعد قيام الوحدة المصرية السورية ١١٦٨م والتى رأى ملكهم فى قيامها « هلال الفرنج واجلاؤهم عن أرض الشام » على قول ابن الأثير[١] كاتبوا « أفرنج صقلية والأندلس وغيرهم واستمدوهم، واستنصروهم لدين النصرانية » .[٢] وأرسلوا جماعة من القسس والرهبان يحرضونهم على النزول على دمياط وغزو الأراضى المصريه[٣].

---

(١) ابن الأثير : حـ ١١ ص ١٣٥ طبعة ١٢٩٠هـ .

(٢) ابن واصل : حـ ١ ص ١٨٠ نشر الشيال .

(٣) ابن الأثير : حـ ١١ ص ١٤٢ طبعة ١٢٩٠هـ .

غير أن تلك المصادر الإسلامية لم تذكر اسما لواحد من اولئك القسس، مع أن وليم الصورى وبعثته إلى مانويل أمبراطور بيزنطه، كانوا من بين تلك الجماعه التى أشار اليها النص العربى . وكان العدوان الصليبى البيزنطى على دمياط فى ختام عام ١١٦٩ م . أحد ثمرات تلك البعثة .

وكيفا كان الأمر ، لعل مصدر هـــذا الانفصال الثقافى بين مؤرخين عاصروا بعضهم بعضا وعاشوا فى أقليم واحد ، هو غلبة التدين القاتم والصرامة الدينية على أهل العصر الوسيط فى الشرق والغرب معاً ؛ وأصبح من العسير على مؤرخ ذلك العصر أن يتجرد من حصيلته الدينية والثقافية ، فوليم الصورى كان أسقفا قبل أن يكون سفيراً . ومعاصره بن شداد كان فقهيا قبل أن يصير رسولا ؛ وعماد الدين الكاتب يقابل بشاعريته أمبروز ؛ كما يقابل اسامه بن منقذ بفروسيته أرنول وهكذا يطل كل منهم على الحوادث من نافذته الخاصة به ، على ان اختلاف النوافذ لم يحدث تغييرا فى الحقائق التاريخية او فى ترتيبها الزمنى . وان أحدث تغييرا طبيعياً فى المنظور التاريخى عند كل من اولئك المؤرخين (١) على قول زيادة .

ونقطة ثانية، اتفق فيها المؤرخون الشرقيون والغربيون المعاصرون لصلاح الدين ــ باستثناء اسامة ــ وهى نشأتهم فى قصور الملوك

---

(١) راجع مقدمة كتاب : تاريخ العصور الوسطى لفيشر القسم الثانى ـ ترجمة زياده .

والسلاطين والأمراء ، فأضحى تاريخهم ربيب القصور وترجمانها لاربيب الشعوب ، ولذا جاء خاويا من أى اشارة الى التطورات الاقتصادية والاجتماعية الا ماجاء عفوا . ودل هؤلاء واؤلئك على كثير من الأمانة والمقدرة والاخلاص والمجاملة فى خدمة ملوكهم . وما اقرب الشبه بين نشأة ابن الأثير فى بلاط امراء الموصل الزنكيين ، ونشأة وليم الصورى فى بلاط ملوك مملكة بيت المقدس ، ومرافقة الشاعر النورمانى امبروز للملك رتشادر فى ساحات القتال ، بمرافقة عماد الدين الكاتب للسلطان صلاح الدين فى تل السلطان وحطين وعكا وغيرها .

ويلتقى اؤلئك المؤرخون جميعاً فى نقطة ثالثة ، وهى ميلهم الى المبالغة فى تقدير واحصاء ، عدد الجيوش والقتلى والجرحى والأسرى والمفقودين . ومثال ذلك قول العماد تعظيما فى صلاح الدين — انه هزم بستة آلاف جندى مصرى عشرين الف موصلى فى وقعة تل السلطان سنة ١١٧٦ م . مع العلم بأن الموصل واعمالها لم تكن ضخمة آهلة بالسكان حتى تجند عشرين ألفا (١) . ومثال ذلك كذلك ، قول وليم الصورى ان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس جند عشرين الف رجل ، وان جيشه اصبح اقوى من اى جيش لأى مملكة تعرفه الذاكرة (٢) . وقدر ابن شداد قتلى الصليبيين فى معركة دارت حول عكا يوم ٣٠ يوليو سنة ١١٩٠ م بعشرة آلاف

---

(١) أبو شامه . كتاب الروضتين ح ٢ ص ٢٥٥ طبعة وادى النيل ١٢٨٧ هـ

(٢) Von Sybel. op. cit. p. 214.

وقتلى المسلمين بعشرة فقط (١) وكان ابن الأثير أكثر اولئك المؤرخين معرفة بعلم الإحصاء ، وأقربهم الى الدقة والصواب، وأبعدهم عن المبالغه بدليل مخالفته العماد الكاتب فى عدد الجيوش التى اشتركت فى معركة تل السلطان ١١٧٦ . وبدليل قوله عن الأسرى الذين وقعوا فى يد صلاح الدين يوم فتحه القدس سنة ١١٨٧ . ونصه . « وأخذ أسيرا ستة عشر آلف آدمى، بين رجل وامراة وصبى، هذا بالضبط واليقين »(٢)

ويكتفى المؤرخون العرب أحيانا. بإظهار الأسف والحزن على من أستشهد أو فقد فى سبيل الجهاد ، ويقدرون عددهم بألفاظ لغوية مائعة كقولهم لا يحصى عددهم . وعسكرا عرمرما ، وجيشاً جراراً ، وعددهم كعدد رمال الصحراء الخ (٣) .

أما نقط الإختلاف بين المؤرخين الشرقيين والغربيين المعاصرين لصلاح الدين ، فأهمها عناية المؤرخ الشرقى وحرصه على تسلسل الأحداث التاريخية، وترتيبها ترتيباً طبيعياً وفق ا يخ حـ.وْ ا،بو افوم، بل فى أى جزء من النهار وقعت الواقعة، قبل الشروق أم بعده ، وقت صلاة الجمعة أم العصر، حتى فى أتفه وأصغر التفاصيل . والحق أن حوليات أبن الأثير أكثر إستفاضه فى التفاصيل ، وحافله بالقصص دون إهمال

(١) أبو شامه . حـ ٢ ص ٢٥٥ — العماد . كتاب الفتح القسى ص ٢١١ .

(٢) ابن الاثير حـ ١١ ص ٢٢٤ طبعة ١٢٩٠ .

(٣) أبو شامه . حـ ٢ ص ١٥٥ .

التسلسل التاريخى ، على نقيض حوليات وليم الصورى الذى يذكر الرواية التاريخية دون تواريخ على الأطلاق ، وكثيرا ما يعدل عن الاستطراد دون ذكر التفاصيل من أجل الإيجاز . (١)

وثمة ناحية أخرى، من نواحى الإختلاف بين المؤرخين الشرقيين والغربيين ، وهى أن ما توصل إليه الغربيون أمثال وليم من المعرفه باللسان العربى، لم يحـــاوله المؤرخون العرب لأنفسهم ، رغم إتاحة الفرص لبعضهم أن يختلط بالصليبيين ويتعلم لغتهم مثل أسامه أبن منقذ، الذى عاشر وصادق كثيرا من فرسانهم . على أن كثيرا من الألفاظ والإصطلاحات تطرقت إلى كل من الطرفين من لغة الطرف الأخر ، ومثال ذلك قول ابن شداد. انقضى الترم (أى الفصل) الأول : وتحضر الرهائن فى ترومكم الباقية : وخرج رسول ملك الانكتار (أى انجلترا) ، ووصلت رسالة الكند (أى الكونت) هنرى (٢) . ومنهـا قول النويرى الفَـصَـل Vassal ومعناها التابع الإقطاعى (٣) . وقول أبى المحاسن « وفيها قدم رسول الانبرور (أى الإمبراطور) الفرنجى على الكامل (٤)» ولا شك أن المؤرخين المسلمين أحسنوا ضبط

---

(١) Von Sybel ; op. cit. pp. 28, 209.

(٢) ابن شداد . النوادر السلطانية طبعة المؤيد ١٣١٧هـ ص ١٦٤ ، ١٨٤ ، ٢١٥ .

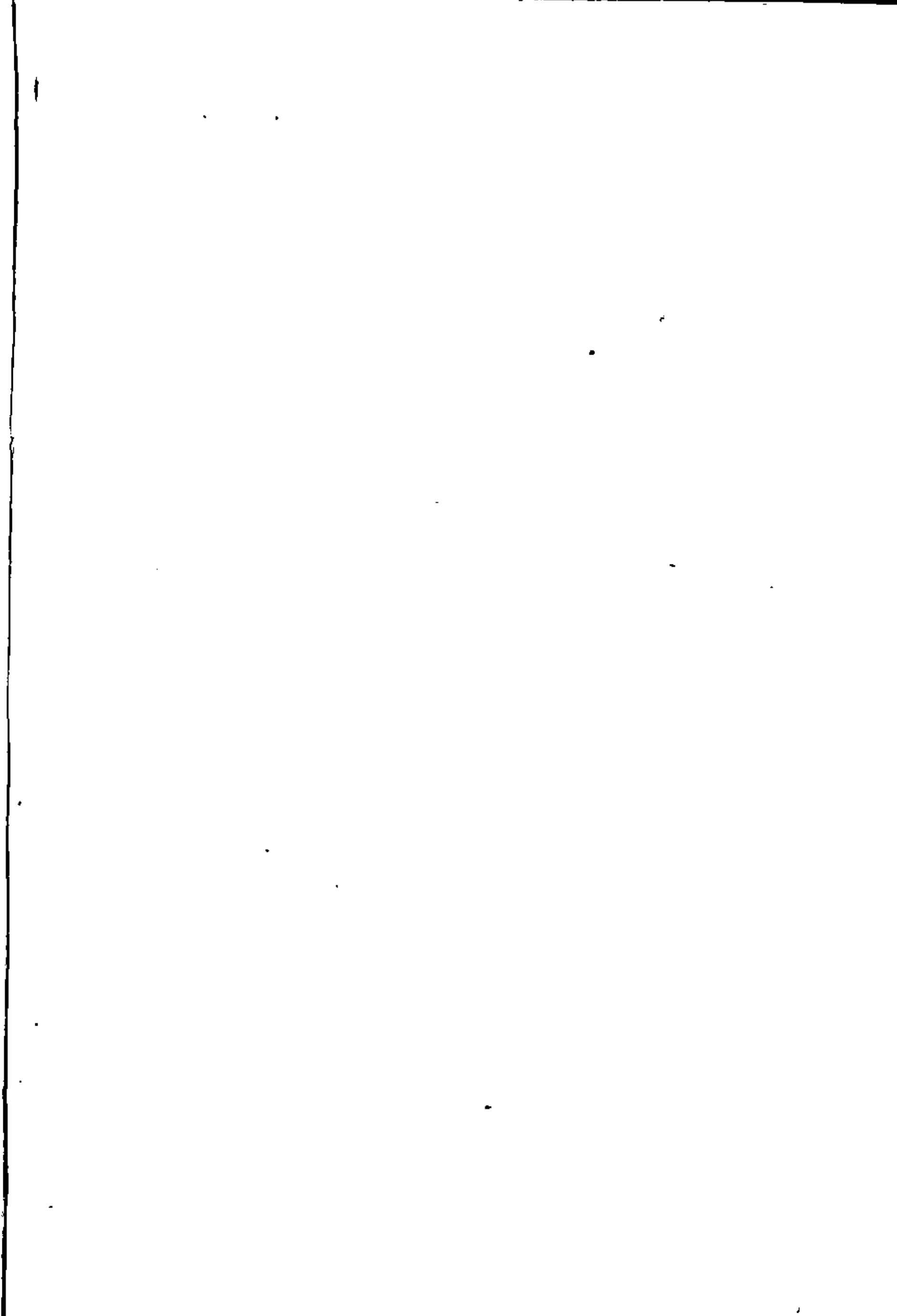
(٣) مقدمة الاقطاع والعصـــور الوسطى بغرب أوربا لكوبلاند تعريب دكتور زياده .

(٤) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٢٨٣ .

الألفاظ الأجنبية ضبطا يشهد بسعة درايتهم بأحوال الدول الأوربية المعاصرة ، وآية ذلك قول المقريزى عن لويس التاسع ملك فرنسا « وكان هذا أريدا فرنس ، من أعظم ملوك الفرنجيه وأشدهم بأسا . وافرنس هى أمه من الفرنج ، ومعنى ريد افرنس ملك افرنس . فإن ريد فى لغتهم معناه ملك »[1] .

تمّ بحمد الله

(١) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٣ .



مصادر الكتاب

المصادر العربية :

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على (٦٣٠ هـ) .

١ - تاريخ الدولة الاتابكية . ج ٢ من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين

٢ - الكامل فى التاريخ ج ١٠ ، ١١ ، ١٢ طبعة ليدن .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد (٦٨١ هـ) .

كتاب وفيات الأعيان وأنباء الزمان - بولاق ١٢٩٩ هـ .

ابن شداد : القاضى بهاء الدين (٦٣٢ هـ) .

النوادر السلطانيه والمحاسن اليوسفية - المؤيد ١٣١٧ هـ .

ابن العماد الحنبلى : عبد الحى بن أحمد (١٠٨٩ هـ) .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . طبعه مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ .

ابن واصل : القاضى جمال الدين (٦٩٧ هـ) .

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب - مخطوط بجامعة القاهرة - ج ١ نشر الدكتور الشيال سنة ١٩٥٣ .

أبو شامة : شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (٦٦٥ هـ).
١ — كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية طبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ والجزء الأول — القسم الأول نشر الدكتور محمد حلمى .
٢ — تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالمذيل على الروضتين ١٩٤٧ .

أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغر بردى (٨٤٧ هـ).
النجوم الزاهرة فى نجوم مصر والقاهرة جـ ٦ طبعة دار الكتب ١٩٣٠ م .

حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . الطبعة الأولى ١٣١٠ هـ .

عماد الأصفهانى : أبو عبد الله محمد بن صفى الدين (٥٩٧ هـ).
١ — كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى — مطبعة الموسوعات ١٢٩١ هـ .
٢ — خريدة القصر وجريدة العصر . قسم شعراء مصر جـ ١ ، ٣ طبعة ١٩٥١ م .

عماره اليمنى : أبو محمد بن أبى الحسن نجم الدين (٥٦٩ هـ).
كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية الطبعة الأوربية

سعـــداوى : نظير حسان .

١ – التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين طبعة ١٩٥٧ .
٢ – جيش مصر فى أيام صلاح الدين طبعة ١٩٥٦ .

فيشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . ترجمة زيادة الطبعة الأولى .

القلقشندى : أبو العباس أحمد (٨٢١ ﻫ) .
صبح الأعشى فى صناعة الأنشا . ج ١٣ طبعة دار الكتب ١٩١٣ م .

كوبلاند : الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ترجمة زيادة . الطبعة الأولى .

المقريزى : تقى الدين بن أحمد بن على (٨٤٥ ﻫ) .
١ – السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر زيادة ١٩٣٤ .
٢ – المواعظ والاعتبار – النيل ١٣٢٤ .

ياقوت الحموى : أبو عبدالله الملقب بشهاب الدين (٦٢٦ ﻫ) .
معجم الأدباء . مطبعة هندية بمصر – تصحيح مرجوليوت .

دائرة المعارف الإسلامية – مادة ابن شداد .

المصادر الأفرنجية

- Brockelmann : Geschiche der Arabischen litteratur (G. A. L.) 1898.
- Cahen : Claude : La Syrie du Nord à l'Epoque des croisades et la principauté franque de l'Antioche. Paris 1940.
- Cambridge Mediaeval history. V. V.
- Campbell, G. A. : The Crusades.
- Cox, G. W. : The Crusades. London 1889.
- Encyclopaedia Britanica : ed. 1950 art :— William of Tyre-Ambrose.
- Crande Encyclopèdie : Art : Assises de Jerusalem. Abbert d'Aix. Ernoul. Foucher. W. de Tyre.
- Gaston Paris : La Legènde de Saladin: Journal des Savants. Paris 1893.
- Gibb : H. A. R. (a) The Arabic Sources of the Life of Saladin. A Journal of Mediaeval Studies. January 1950.

(b) The achievement of Saladin : Bulletin of the John Rylands Library Manchister. Vol. 35 No. 1. September 1952.

— Grousset, R. : Histoire des Croisades. Part II. Paris 1935.

— Hatem, A. : Les Poemes epiques des croisades. Paris 1932.

— Lane - Poole : S. (a) A History of Egypt in the Middle ages. London 1901.

(b) Saladin — London 1898.

— Paulin Paris : Guillaume de Tyr et Ses Continuateurs. Paris 1879.

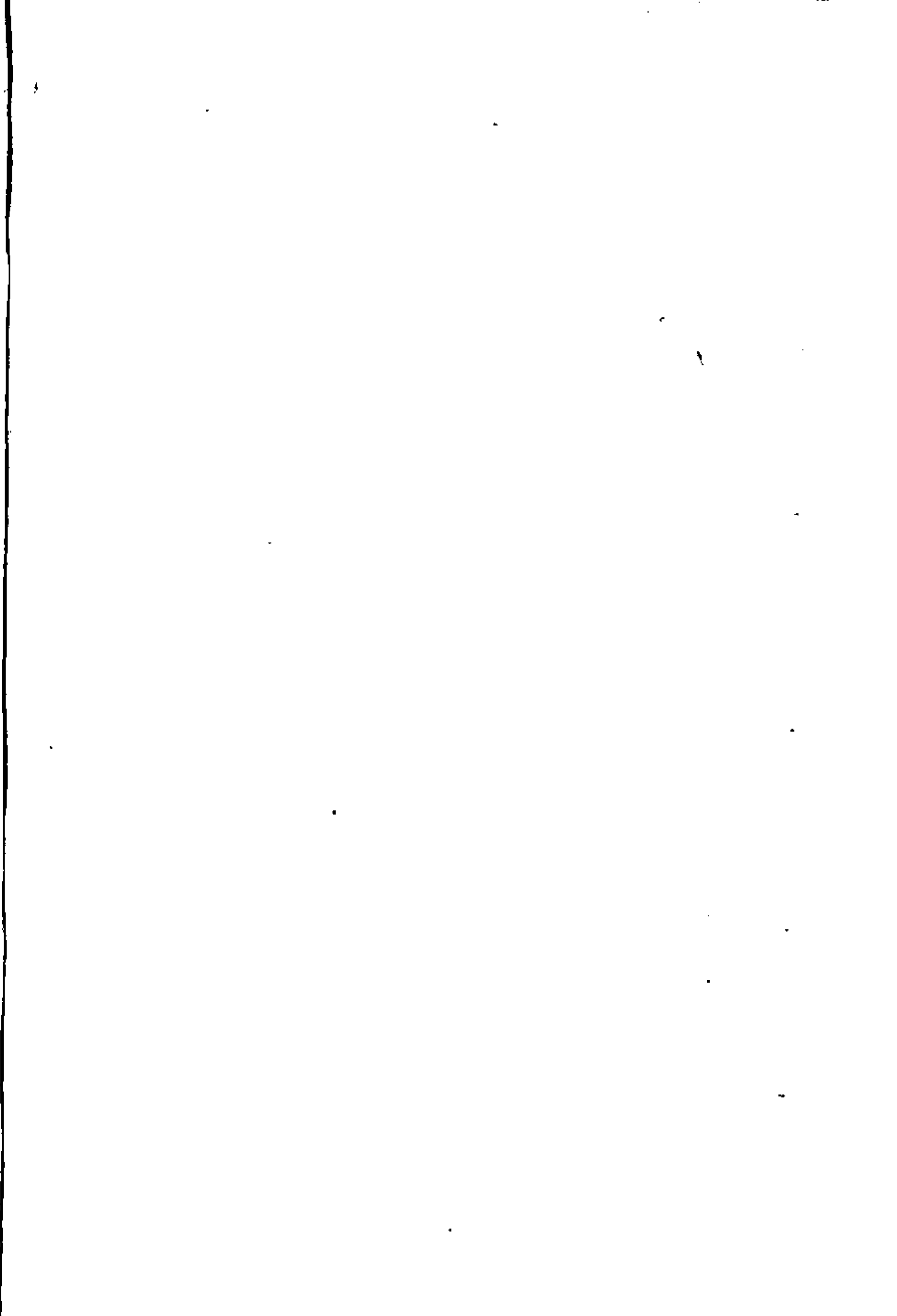
— Reinaud : J. T. : Extraits des Historiens arabes relatifs aux guerres des croisades.

— Runciman. S. : A History of the crusades. V. II, Cambridge 1952.

— Recueil des Historiens : Occidentaux des Croisades Vols : I — II.

: Orienteaux des Croisades. Paris.

— Von Sybel : History and literature of the Crusades. ed. Lady Duff Gordon.



كتب للمؤلف

١ – نظام البريد فى الدولة الإسلامية (طبعة ١٩٥٣)
٢ – التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى
(طبعة ١٩٥٧)
٣ – خمسة من معاصرى صلاح الدين الأيوبى (طبعة ١٩٥٧)
٤ – ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية (طبعة ١٩٥٧)
٥ – تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى
(طبعة ١٩٥٨)
٦ – جيش مصر فى أيام صلاح الدين (الطبعة الثانية ١٩٥٩)
٧ – الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى (طبعة ١٩٦١)

تطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلى القاهرة